الدفاع عن الماركسية

العدد 52

السودان
من الثورة إلى الهمجية

تقرأون أيضا:

دروس من
كومونة باريس

الحركة المناهضة
لحرب فيتنام

الدفاع عن الماركسية

المجلة النظرية الفصلية للأممية الشيوعية الثورية

العدد: 52 يونيو/حزيران 2026 marxist.com marxy.com

© In Defence of Marxism

هيئة التحرير: آلان وودز (رئيس التحرير)، روب سيويل، حميد علي زاده، فرانسيسكو ميرلي، دانييل مورلي، بين كوري، جوش هيلورود، جيمس كيبلي | **التصميم:** خوسي موري-دينيبلي | **التواصل:** للتواصل مع الأممية الشيوعية الثورية في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، يمكنكم مراسلتنا على العناوين الآتية: | **البريد الإلكتروني لموقع ماركسي:** contact@marxy.com | **بريد موقع الدفاع عن الماركسية:** contact@marxist.com | **مجلة الدفاع عن الماركسية:** editor@marxist.com | *In Defence of Marxism Ltd 49 Station Road, Polegate, East Sussex, UK, BN26 6EA*

| جميع الصور غير المنسوبة لمصدر تقع ضمن الملكية العامة. | مجموعة ديفيد كينغ، اشتراها أرشيف تيت من ديفيد كينغ عام 2016 | صورة الغلاف: من الاعتصام في مقر القيادة العسكرية بالخرطوم، السودان، 19 أبريل/نيسان 2019 (© أحمد علي) | الصورة الداخلية: قطار يَقلّ المحتجين إلى الاعتصام في الخرطوم، 17 غشت/آب 2019 (منولا أمين)

Subscribe at marxist.com/magazine

ص 04: الاشتراكية أو الهمجية

ص 09: السودان: من الثورة إلى الهمجية

ص 29: دروس من كومونة باريس

ص 35: الحركة المناهضة لحرب فيتنام: عندما ارتعد العملاق

ص 50: الجبل السحري: صورة لانحطاط البورجوازية

الاشتراكية أو الهمجية

هيئة التحرير

قبل مئة سنة، وفي خضم الحرب العالمية الأولى، ظهر في زيورخ منشور مجهول المصدر تحت اسم مستعار "جونيوس"، وسرعان ما انتشر في أوساط الحركة العمالية العالمية. كان ذلك المنشور قد كُتب، في الواقع، من داخل زنزانة في سجن ألماني على يد روزا لوكسمبورغ. كتبت فيه:

«يقف المجتمع البرجوازي على مفترق طرق، إما الانتقال إلى الاشتراكية أو التراجع إلى الهمجية».

وقد أصبح هذا التنبؤ الجريء، الذي نسبته إلى فريدريك إنجلز، أحد أشهر شعارات الحركة الماركسية: "الاشتراكية أو الهمجية".

"الموت للإمبريالية العالمية" (1920)،
دميتري مور
(ديفيد كينغ)

وما تزال تلك الكلمات تحتفظ بقوتها حتى اليوم. فهي تُجسد بدقة المرحلة التي نعيشها: نظام اجتماعي في حالة تدهور متقدمة؛ طبقة سائدة منحطة عاجزة عن معالجة مشاكل الإنسانية؛ وصراع حياة أو موت يخوضه المضطهَدون للتخلص من النظام القديم، حيث لا بد للطبقة العاملة إما أن تنتصر أو تواجه الخراب.

هذا هو الواقع الذي يتجلى اليوم بوضوح في السودان، والذي نخصص له هذا العدد من مجلة "دفاعا عن الماركسية".

الصعود والهبوط

إن التاريخ، على عكس الفكرة الليبرالية التي كانت شائعة سابقا، ليس صعودا متواصلا وتدريجيا على طريق التقدم البشري، فهو يشهد انحدارا مثلما يشهد الصعود، وقفزات هائلة إلى الأمام وكذا انهيارات كارثية.

قم بزيارة الآثار المهيبة، وإن كانت مهجورة، لمدن المايا العظيمة، أو قِف على بقايا سور هادريان -الذي بُني لتحديد حدود الإمبراطورية الرومانية- وستلمح القانون الديالكتيكي العظيم للتاريخ: "كل ما هو موجود يستحق الفناء".

لكن لا يكفي مجرد ملاحظة أن حضارات قد ظهرت واختفت قبل حضارتنا؛ بل من الضروري فهم السبب. وهو السؤال الذي حير المؤرخين والفلاسفة لعدة قرون. لقد أصدرت هيئة الإذاعة البريطانية (BBC) مؤخرا سلسلة بعنوان "الحضارات: الصعود والسقوط"، وهي سلسلة تتناول هذا الموضوع تحديدا، وتتطرق إلى انهيار روما، ومصر البطلمية، وإمبراطورية الأزتك، وشوغونية توكوغاوا في اليابان.

وبغض النظر عن محتوى تلك السلسلة (وكلما قل الكلام عنها كلما كان ذلك أفضل)، فإن الأمر الأكثر إثارة للدهشة هو الاعتراف الصريح بالتشابهات مع واقعنا اليوم. خذ على سبيل المثال قراءة في تلك السلسلة نشرت في صحيفة الغارديان بعنوان: "تلفزيون سيجعلك تشعر باليأس من مجتمعنا المتدهور".

غالبا ما يُعزى انحدار الحضارات وانهيارها إلى سوء القيادة، كالأباطرة غير الأكفاء أو المختلين عقليا، أو إلى أسباب خارجية كالكوارث الطبيعية والأوبئة. ومع أن هذه العوامل تلعب دورا، فإن الانحدار الذي لا رجعة فيه لحضارة بأكملها لا يمكن تفسيره بمجرد أخطاء الأفراد. فمثل هذا التفسير لا يثير سوى السؤال التالي: "لماذا استمر قادتهم في ارتكاب الأخطاء؟"، وهو السؤال الذي يطرحه الكثيرون حول حكامنا اليوم.

لقد اكتشف كارل ماركس السيرورة الجوهرية التي تحدد في نهاية المطاف صعود الحضارات وسقوطها، وعرضها في سطور قليلة لكنها لامعة في مقدمته لكتاب "مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي"، الذي نُشر عام 1859، وهو العام نفسه الذي نُشر فيه كتاب داروين "أصل الأنواع".

من خلال تطبيقه للمنهج العلمي حدد ماركس أن كل التشكيلات الاجتماعية تنشأ على أساس مادي: ليس فقط الظروف البيئية، بل مجموعة محددة من العلاقات بين البشر، والتي من خلالها ينتجون ضرورات الحياة وفقا لمستوى التكنولوجيا المكتسبة.

خلال فترة من الزمن، يؤدي انتشار علاقات الإنتاج هذه -وكل النظام الاجتماعي والسياسي والأيديولوجي الذي ينشأ على ذلك الأساس المادي- إلى تسريع هائل لتطور العمل الاجتماعي ووسائل الإنتاج والعلم والتقنية، أي باختصار ما نطلق عليه اسم: قوى الإنتاج. وتطور قوى الإنتاج يؤدي بدوره إلى تعزيز النظام الصاعد، الذي يجتاح كل شيء في طريقه.

والتاريخ مليء بأمثلة عن هذه الظاهرة: انتشار الزراعة خلال الثورة النيوليتيكية؛ ظهور الدول والمجتمع الطبقي خلال العصر البرونزي؛ وصعود نظام الرق في أوروبا القديمة ومنطقة البحر الأبيض المتوسط؛ و"الطفرة القروسطوية" التي أعقبت ترسيخ النظام الإقطاعي؛ وبالطبع، الصعود المتواصل للرأسمالية الصناعية الحديثة. وهذه ليست قائمة شاملة بأي حال من الأحوال.

لكن كل شيء ينقلب في النهاية إلى نقيضه. وكما يوضح ماركس، فإن قوى الإنتاج التي تطورت في ظل النظام القائم تصبح أقوى وأوسع نطاقا من أن تستوعبها علاقات الإنتاج والتبادل الضيقة القائمة.

في مثل تلك الفترات، يصبح الحفاظ على العلاقات القديمة قيدا مؤلما متزايدا أمام أي تطور إضافي. وفي الوقت نفسه فإن أي تطور اقتصادي يحدث لا يؤدي إلى تعزيز النظام القائم، بل يقوضه، مما يؤدي إلى الأزمات والحروب والثورات.

تدهور اقتصاد الرق الروماني، ومن رحم ذلك التدهور انبثقت النظام الإقطاعي في النهاية. وبالمثل، فقد ازدهرت الإقطاعية في أوروبا طيلة قرون، لكي تدخل بعد ذلك في فترة انحدارها، والتي وُضعت أثناءها أسس الرأسمالية. وهكذا، فإن في صعود أي نظام اجتماعي بذور انحداره النهائي، وفي كل انحدار بذور تقدم مستقبلي، مهما بدا بعيدا.

الإمبريالية

لكن ماذا عن الرأسمالية؟ بأي معنى يمكننا الحديث عن انحدار النظام الرأسمالي اليوم بالنظر إلى أن الاقتصاد العالمي قد نما أضعافا مضاعفة خلال القرن الماضي؟ يكمن الجواب في طبيعة الإمبريالية، كما وصفها لينين في كتابه "الإمبريالية: أعلى مراحل الرأسمالية"، الذي نُشر في نفس العام الذي صدر فيه منشور لوكسمبورغ.

الإمبريالية ليست مجرد هيمنة أمة على أخرى، كما هو شائع، بل هي مرحلة في تطور النظام الرأسمالي العالمي، مرحلة انقلبت فيها العلاقات الرأسمالية إلى نقيضها.

روزا لوكسمبورغ

لقد تم استبدال ما يسمى "المنافسة الحرة" بين الشركات الرأسمالية بالهيمنة على السوق من طرف سلسلة من البنوك العملاقة والاحتكارات، المرتبطة ارتباطا وثيقا بالدولة. وينطبق هذا الأمر على الدول التي يُعترف فيها بدور الدولة بشكل صريح، كالصين، مثلما ينطبق على الولايات المتحدة الأمريكية، التي يُفترض أنها معقل "المبادرة الحرة".

إن تزايد التخطيط داخل الاحتكارات لا يقضي على فوضى السوق، بل يزيدها سوءا، مما يؤدي إلى أزمات أعمق فأعمق. وفي الوقت نفسه نجد أن مفاهيما مثل "التدمير الخلاق" و"اليد الخفية" للسوق قد تم استبدالها عمليا بشركات "أكبر من أن يُسمح بإفلاسها" تتلقى عملياتَ إنقاذٍ ودعما وعقودا حكومية مربحة، وكلها ممولة بمستويات هائلة من الدين العام.

ونتيجة لذلك أصبحت الطبقة الرأسمالية نفسها طفيلية تماما. فالنمو الذي يحدث يعتمد إلى حد كبير على الدولة، ولا ينفذه أرباب العمل بل جيش من العمال المأجورين. وبدلا من أن يؤدي ذلك النمو إلى تقوية الطبقة السائدة، فإنها تصبح أكثر تضاؤلا.

ويتجلى هذا بوضوح في القوى الإمبريالية القديمة في أوروبا، حيث أشرفت الطبقة السائدة على عقود من الركود الاقتصادي، وتراجع التصنيع، وانهيار البنية التحتية. لكن علامات انحلال الرأسمالية تظهر في كل مكان، ولا سيما في مستويات اللامساواة الرهيبة.

في الحقيقة، لم يشهد التاريخ طبقة سائدة بهذه الدرجة من الطفيلية، وبهذه الدرجة من الانفصال عن الواقع، وبهذا القدر من النضج لتتم الإطاحة بها.

وينعكس ذلك بطبيعة الحال في الانحطاط الفكري والأخلاقي، بل وحتى النفسي، لهذه الطبقة السائدة. ويتجلى هذا بوضوح في المصرفي وتاجر الجنس، جيفري إبستين، الذي شملت شبكته القذرة من "الزبائن" شريحة واسعة من أغنى وأقوى العائلات في العالم الغربي. وهذا غيض من فيض.

كما أن هيمنة الإمبريالية على العالم تجلب معها ويلات الحرب والإبادة الجماعية على نطاق غير مسبوق. وبهذا المعنى، فإن أعلى مستوى من الحضارة بلغه الإنسان حتى الآن قد صار يُنتج بالضرورة نقيضه: الهمجية.

وقد كان هذا هو الحال طوال تاريخ الإمبريالية الرأسمالية الحديثة. في فجر العصر الإمبريالي، وضع مؤتمر برلين سنة 1884 مبدأ terra nullius ("الأرض المباحة") سيئ السمعة، والذي بموجبه تم تدمير دول وإبادة شعوب لإفساح المجال أمام القوى الإمبريالية الأوروبية.

وبدافع من نهم الاحتكارات الذي لا يشبع للموارد والأسواق ومجالات الاستثمار، أدى الصراع الدؤوب بين أقوى الدول الرأسمالية على تمزيق أوصال العالم، إلى ويلات حربين عالميتين، حصدتا معا أرواح أكثر من 100 مليون شخص.

وحتى خلال العصر الذهبي لما سمي *'Pax Americana'* ("السلام الأمريكي")، شهد العالم حرب إبادة شنتها الإمبريالية الأمريكية ضد الشعب الفيتنامي، لخصت وحشيتها عبارة أحد الجنرالات الأمريكيين والذي قال: "سنقصفهم حتى نعيدهم إلى العصر الحجري".

واليوم لا تنقصنا الأمثلة على الوحشية التي رعتها ونشرتها الإمبريالية. ففي الرعب الذي حل بشعوب غزة ودارفور وشرق الكونغو، تتجلى لنا بوضوح حقيقة التحذير الذي قالته لوكسمبورغ:

"انتصار الإمبريالية هو فناء الحضارة".

وإذا سُمح للرأسمالية بالاستمرار في تدمير البيئة، فسوف يتأكد هذا التحذير بأكمل صورة ممكنة.

الصراع الطبقي

بسبب الرعب الذي أحدثته أزمة الرأسمالية اليوم، فقد كثيرون إيمانهم بإمكانية فهم العالم بعقلانية. وقد أدى هذا بدوره إلى تزايد الاهتمام بالدين ونظريات المؤامرة. بل إن كثيرين يتحدثون عن نهاية العالم، سواء كان ذلك بسبب ذكاء اصطناعي مارق، أو حرب نووية، أو أي سبب آخر.

هذا الخوف من نهاية العالم ليس بجديد؛ فقد كان شائعا في أواخر أيام الإقطاع خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر. لكن ذلك لم يكن نهاية العالم، بل مجرد احتضار لنظام عفا عليه الزمن.

في مثل تلك الفترات، يصير معنى التقدم هو التحرر من حطام نظام مُنهار، وإرساء أسس نظام جديد قائم على علاقات مختلفة جذريا.

إن إزالة هذه العلاقات البالية وفتح الطريق أمام تطور قوى الإنتاج هو جوهر الثورة الاجتماعية. لكن الثورات لا تُنفذ بواسطة قوى الإنتاج نفسها، ولا بواسطة "الإنسانية" أو "التاريخ" في المجرد.

بل تُنفذ على يد البشر الأحياء، المنقسمين إلى طبقات ذات مصالح متناحرة.

شرح ماركس أن الإنسانية لا تطرح على نفسها إلا "المهام التي تستطيع حلها". فمع ازدهار أي نظام اجتماعي، يخلق القوى المادية اللازمة لإسقاطه، بما في ذلك طبقات اجتماعية جديدة قادرة على إرساء نظام اجتماعي جديد. في ظل الإقطاع كانت البرجوازية هي هذه الطبقة. أما اليوم، فالطبقة العاملة هي التي تُجسد آمال الإنسانية.

هذه ليست مجرد عقيدة. فالطبقة العاملة تُنتج معظم ثروات العالم. وقد أثبت العمال مرارًا عبر التاريخ قدرتهم على تولي زمام الإنتاج وتنظيمه بكفاءة أكبر، دون العبء الزائد الذي يمثله أرباب العمل والملاكون العقاريون.

وعلاوة على ذلك فإن الطبقة العاملة، ومنذ ظهورها على ساحة التاريخ، دُفعت، بحكم موقعها الطبقي، إلى النضال ضد الطبقة السائدة والنظام القائم، مما جعلها في طليعة كل حركة تحرر وتقدم.

لذا، فإن عبارة "الاشتراكية أو الهمجية" تعني أن استيلاء الطبقة العاملة على السلطة هو السبيل الوحيد لهزم الإمبريالية وإسقاط النظام الرأسمالي المتداعي. لكن من الضروري أيضا أن ندرك أن الطبقة السائدة لن تتوانى عن فعل أي شيء، حتى لو كان ذلك على حساب تقويض حضارتها نفسها، لسحق أي إمكانية ظهور لمجتمع جديد داخل المجتمع القديم.

عندما ارتكبت المذبحة ضد عمال باريس سنة 1871، كان التقتيل وحشيا لدرجة أن حتى الصحافة البرجوازية المحترمة نفسها ناشدت السلطات التوقف، إذ صارت رائحة الجثث لا تُطاق. وفي القرن العشرين، كانت البرجوازية الأوروبية مستعدة لإطلاق العنان لوحش الفاشية على أوروبا لأجل القضاء على الحركة العمالية، بدلا من التعرض لخطر الإطاحة بها.

وبالمثل، ففي الآونة الأخيرة، كانت الطبقة السائدة السودانية أكثر من مستعدة لاستخدام قوات الدعم السريع ككلاب مسعورة ضد الحركة الثورية. وقد استفادت تلك القوة شبه العسكرية الرجعية طيلة سنوات من التدريب والتمويل ليس فقط من قبل الدولة السودانية، بل وكذلك من قبل العديد من القوى الأجنبية. وكانت النتيجة تدمير البلاد.

ينبغي أن يكون مصير السودان بمثابة تحذير: أي ثورة لا تصل إلى حد الإطاحة الكاملة بالبرجوازية ودولتها إنما تُهيئ نفسها لكارثة.

الحزب

قد يُطرح السؤال المنطقي التالي: إذا كانت الطبقة العاملة قادرة حقا على إسقاط الرأسمالية وإنقاذ المجتمع من النظام الرأسمالي المتداعي، فلماذا لم يتحقق ذلك بعد؟

إن بقاء الإمبريالية لا يمكن إرجاعه على الإطلاق إلى أي نقص في شجاعة أو عزيمة العمال عند خوضهم غمار الثورة. فعلى مدى المئة عام الماضية، اهتزت جميع بلدان العالم تقريبا بحركات جماهيرية ملهمة، طرحت مسألة السلطة بشكل مباشر وصريح.

ومع ذلك لم تُفض الغالبية العظمى من تلك الحركات إلى إسقاط الرأسمالية. إن ما أثبتته تجربة القرن الماضي بما لا يدع مجالا للشك هو أن قوة الجماهير وبطولتها، وإن كانت ضرورية للغاية لأي ثورة، غير كافية بحد ذاتها.

ثلاثية الحرب (1938)، أوريليو أرتيتا، رُسمت خلال الحرب الأهلية الإسبانية

ما هو مطلوب هو التنظيم، وقبل كل شيء، قيادة قادرة على مواجهة التحديات الجسام للتاريخ، وإيصال النضال إلى النصر. وهذا هو العامل الحاسم الذي غاب للأسف في كثير من الحالات.

لا يعود هذا إلى حوادث عرضية أو أخطاء فردية. فعندما تنخرط الجماهير في النضال، من الطبيعي أن تتطلع أولا إلى الشخصيات المعروفة أو المنظمات المعروفة، أو إلى من يقدمون لها الطريق الأسهل. لكن هؤلاء يميلون إلى النظر إلى الماضي، أو أنهم يجدون أنفسهم في حيرة تامة أمام الوضع الراهن.

من خلال تجاربهم الشخصية في خضم الأحداث، يتعلم العمال والشباب دروسا قيّمة ويبدأون في استخلاص استنتاجات ثورية. لكن إذا لم تكن هناك قيادة بديلة قادرة على التعبير عن تلك الاستنتاجات، فلن يكون بالإمكان ارتجالها في اللحظة الراهنة. ونتيجة لذلك ستصل الحركة إلى طريق مسدود، كما حدث في السودان.

تتمثل المهمة الحاسمة للحزب الثوري في ربط العلاقة مع الوعي المتنامي للجماهير وكسب قيادة الحركة في الوقت المناسب، قبل أن تتمكن قوى الثورة المضادة من إخمادها أو سحقها.

هذه ليست مهمة سهلة، ولذا فهي تتطلب بناء ذلك الحزب **قبل** أن ينفجر بركان الثورة. وقد أكد لينين، في سياق رده على كتيب لوكسمبورغ "جونيوس"، على ضرورة بناء تلك المنظمة، فكتب:

«إن أحد أكبر نواقص الماركسية الثورية في ألمانيا ككل هو افتقارها إلى منظمة سرية متماسكة تتولى بشكل منهجي تنفيذ خطها وتثقيف الجماهير بروح المهام الجديدة...».

حملت هذه الكلمات دلالة بالغة الأهمية خلال الثورة الألمانية عام 1918. فقد بدأت لوكسمبورغ وماركسيون ثوريون آخرون النضال الحاسم لبناء قيادة ثورية عندما أسسوا الحزب الشيوعي الألماني في دجنبر 1918. لكن بحلول ذلك الوقت، كانت الثورة قد اندلعت بالفعل، وتلقى الثوار ضربة قاسية بتعرض لوكسمبورغ وكارل ليبكنخت للاغتيال بطريقة وحشية، بعد أقل من شهر.

تكررت مأساة الثورة الألمانية مرات عديدة. كان بإمكان الموجة الثورية الملهمة التي اجتاحت أوروبا بعد نهاية الحرب العالمية الثانية أن تُغير مجرى التاريخ جذريا، لكن قيادتها تعمدت إعاقتها وتوجيهها نحو مسارات "آمنة".

وحتى في الولايات المتحدة، التي هي أعظم قوة إمبريالية على وجه الأرض، لو كان قد تم بناء حزب شيوعي ثوري قوي خلال سنوات الستينيات المضطربة، لكان من الممكن الإطاحة بالرأسمالية.

بين عامي 2019 و2021، كانت السلطة في متناول عمال وشباب السودان. وعدم استيلائهم عليها يعود بالكامل إلى قادتهم الذين كبحوا باستمرار جماح الحركة لإبقائها ضمن حدود انتقال تدريجي وسلمي إلى الديمقراطية، وهو الانتقال المستحيل بالنظر إلى طبيعة الرأسمالية السودانية.

لا يسع المرء إلا أن يتذكر الحرب الأهلية الإسبانية في ثلاثينيات القرن العشرين. كان بإمكان الجماهير الإسبانية أن تستولي على السلطة مرات عديدة، لكن أحزابها كبّلتها باسم "النظام". وكانت النتيجة رعبا لا يمكن تصوره، كما هو الحال اليوم في السودان.

وهكذا فإن المعضلة التاريخية المتمثلة في "الاشتراكية أو الهمجية" تتحول إلى المسألة السياسية العملية المتمثلة في **الحزب الثوري**.

لا وقت نضيعه

الهمجية ليست مجرد احتمال مستقبلي، بل هي تستشري الآن. لكن هذا ليس سببا لفقدان الأمل.

وبالعودة إلى مقولة ماركس العميقة: «لا تضع الإنسانية على نفسها إلا المهام التي تستطيع حلها»، فإن إمكانية قيام حزب ثوري عالمي للطبقة العاملة موجودة في كل مكان. في الواقع، لم تكن هذه الإمكانية أكبر مما هي عليه الآن.

على الصعيد العالمي، لم تكن الطبقة العاملة أقوى مما هي عليه الآن. وفي الوقت نفسه، فإن الطبقة السائدة في معظم أنحاء العالم، توجد في أضعف حالاتها منذ عقود، ويجري استقطاب جيل كامل تحت راية "ثورات جين زي".

إن الطبقة العاملة والجماهير المضطهَدة في العالم لن تسمح للطبقة السائدة بجرنا إلى الهاوية دون مقاومة، مقاومة ستتجاوز جميع ثورات الماضي.

تتمثل مهام الماركسيين اليوم في التنظيم، والوصول إلى أكثر فئات العمال والشباب طليعية، وبناء أحزاب تضم آلاف الثوريين الشيوعيين المتمرسين، المستعدين والقادرين على الانضمام إلى نضال الجماهير خلال المعارك الجبارة القادمة، وأخيرا قيادة النضال نحو استيلاء الطبقة العاملة على السلطة.

إذا كان للتاريخ من عبرة يعلمنا إياها فهي أن هذه المهمة لن تكون سهلة ولا تسير في خط مستقيم، إلا أنه لا توجد قضية أعظم منها على وجه الأرض.

لقد أظهرت لنا التجربة السودانية حجم المخاطر. فلنتقدم إلى الأمام ونحن مدركين تماما للتحديات التي تلوح في الأفق، وعازمين أشد العزم على تحطيم كل العقبات التي تعترض طريقنا.

المراجع متاحة على الانترنيت عبر:
marxist.com/idom-52-references

أو يمكن مسح رمز الاستجابة السريعة (QR code)

السودان: من الثورة إلى الهمجية

كانت الثورة السودانية (2018-2021) من أقوى الحركات الجماهيرية التي شهدها هذا القرن. يستكشف الرفيق توماس سود في هذه المقالة خلفية الثورة وإمكانياتها الهائلة، وكيف هُزمت، مما أدى إلى الهمجية التي نشهدها في المنطقة اليوم.

لقد جرّت الثورة المضادة السودان إلى هاوية الهمجية.

في عام 2019، كانت السلطة في أيدي العمال، لكن القادة الإصلاحيين خانوهم وأعادوا السلطة إلى النظام. وبحلول سنة 2022، كانت الثورة قد ضاعت.

بعد سنة وجّه جلادو الثورة أسلحتهم نحو بعضهم البعض، مدعومين من تحالف قوى أجنبية مختلفة. والآن دمروا الخرطوم، وارتكبوا إبادة جماعية في دارفور، وتسببوا في أقسى مجاعة كارثية في العالم منذ 40 سنة.

قُتل، حتى الآن، ما لا يقل عن 400 ألف شخص، وفر 4 ملايين شخص من البلاد، ونزح 7 ملايين آخرون داخليا. هذا ويواجه 6,3 مليون شخص خطر المجاعة الشديدة. ويحتاج أكثر من 30 مليون شخص إلى مساعدات إنسانية. وقد مزقت

قطار يقلّ المحتجين إلى الاعتصام في الخرطوم، 17 أغسطس/آب 2019 (أسامة الفكي)

من "ثورة 6 أبريل" عام 1985 (ميستر جيف)

الحرب التي استمرت سنتين ونصف البلد إلى نصفين.

شعار الاشتراكية أو الهمجية ليس مجرد عبارة جوفاء، بل هو الواقع الذي واجهه عام 2019. يجب على الثوريين استيعاب دروس السودان للاستعداد للمعارك المستقبلية.

الرأسمالية السودانية

غزا البريطانيون السودان سنة 1898، ومن خلال احتلال وحشي، شرعوا في تحويل الاقتصاد السوداني. قبل دخول البريطانيين لم تكن الرأسمالية موجودة في السودان. وبفعل حكمهم، تم إدخال مزارعي البلد الذين كانوا يعتمدون على زراعة الكفاف إلى السوق العالمية، حيث صاروا يزرعون القطن وغيره من المنتجات في وادي النيل الخصب.

وعلى الرغم من غياب الصناعة خارج العاصمة الخرطوم، فإن السوق العالمية حفزت إنشاء خطوط السكك الحديدية التي تخترق الصحراء. بحلول 1950، كان قطاع السكك الحديدية يوظف 100 ألف عامل، من بينهم 10 آلاف كانوا يعملون في المكتب المركزي في عطبرة وحدها. تلك هي الظروف التي خلالها أصبح عمال السكك الحديدية أول من نظموا أنفسهم نقابيا عام 1949، بعد ثلاث سنوات من تأسيس الحزب الشيوعي السوداني.

هيمنت الرأسمالية البريطانية على الاقتصاد السوداني. سيطر البريطانيون على السكك الحديدية، والصناعات التي تعالج الصادرات الزراعية الخام، والنظام المصرفي. كانت الطبقة الرأسمالية السودانية الأصلية شبه معدومة. ولترسيخ حكمهم، شرع البريطانيون في بناء طبقة رأسمالية مصطنعة. افتتحوا أولى مدارس السودان، وعلى غرار ما كان سائدا في أرجاء الإمبراطورية، عملوا على تطوير طبقة برجوازية عميلة، طبقة تعتمد كليا على الإمبريالية، وتفتقر إلى قاعدة اقتصادية أو سياسية مستقلة.

كانت تلك البرجوازية السودانية ضعيفة وواهنة لدرجة أنه عندما تولت أول حكومة برجوازية ديمقراطية السلطة، بعد الاستقلال عام 1956، سرعان ما دعت الجيش لتولي زمام الأمور من أجل استقرار البلاد. كانت الهيمنة الإمبريالية تعني أن معظم البنية التحتية الصناعية المحدودة كانت إما تحت سيطرة البريطانيين المباشرة، أو بشكل غير مباشر من خلال سيطرتهم على القطاع المالي. وقد أعاق ذلك الأمر نمو طبقة برجوازية مستقلة، لكنه في الوقت نفسه عزز القوة النسبية للبروليتاريا، التي كانت تمتلك القدرة على قيادة الجماهير نحو الاستيلاء على السلطة.

لم تكن تلك السيرورة فريدة من نوعها، بل تنسجم مع نظرية الثورة الدائمة، كما صاغها تروتسكي عام 1906 في معرض حديثه عن روسيا. فوفقا لهذه النظرية، لا تستطيع البرجوازية في البلدان التي شهدت تطورا رأسماليا متأخرا أن تلعب دورا تقدميا. وقد تأكد هذا الأمر تماما في السودان، حيث شهد البلد ثلاث حكومات برجوازية ديمقراطية: 1956- 1958، 1964-1969، 1985-1989. وفي كل مرة من تلك المرات كانت البرجوازية ضعيفة ومنقسمة وفاسدة، وخائفة من الطبقة العاملة. وانتهت كل فترة من تلك الفترات بقيام ديكتاتورية عسكرية.

في جميع تلك الحالات الثلاث كان بإمكان الطبقة العاملة أن تستولي على السلطة. كان العمال السودانيون هم من أطاحوا بالجيش في ثورة أكتوبر عام 1964، عبر إضرابات عامة حاشدة. أما انقلاب سنة 1969، بقيادة العقيد نميري، فقد

كان مدفوعا بسخط ضباط من البرجوازية الصغيرة، الذين عُرفوا باسم "الضباط الأحرار"، والذين اقتدوا بنهج جمال عبد الناصر في مصر، وتطلعوا إلى الاتحاد السوفياتي طلبا للتوجيه. ومرة أخرى كانت الطبقة العاملة هي من أسقطت نميري عام 1985، مع انحطاط نظامه إلى دكتاتورية إسلامية.

كان من المفترض على الحزب الشيوعي السوداني أن يحاكي دور البلاشفة عام 1917، بأن يشرح أن الرأسمالية لا تقدم أي حل للجماهير، وأن استيلاء الطبقة العاملة على السلطة، بالتحالف مع الفلاحين، هو السبيل الوحيد للمضي قدما. لكن الحزب الشيوعي السوداني فشل في هذه المهمة التاريخية.

بحلول أواخر الستينيات، أصبح الحزب الشيوعي السوداني ثاني أكبر حزب شيوعي في أفريقيا، بأكثر من 10.000 عضو منضبط. كان يقود النقابات العمالية والحركة الطلابية على حد سواء. إلا أن تلك الإمكانات الهائلة أهدرت بسبب النظرية الستالينية.

بتوجيه من بيروقراطية الاتحاد السوفياتي، التزم الحزب الشيوعي السوداني بنظرية الثورة ذات المرحلتين ذات الأصول المنشفية، والتي تزعم أن الثورة في السودان لا يمكن أن تكون إلا ديمقراطية برجوازية. لذا تلقى الشيوعيون الأمر بلعب دور مساعد للبرجوازية "التقدمية" على الوصول إلى السلطة. بل إن بعض أعضاء الحزب عرّفوا أنفسهم بـ"الرأسماليين الثوريين"، وشكلوا جناحا برجوازيا صريحا.

نتيجة لذلك انهار الحزب تحت وطأة الأحداث. فقد تسببت مشاركته في حكومة سنة 1964 في حدوث انقسامات داخلية. وأدى صعود نميري سنة 1969 إلى حدوث شرخ آخر. أما الانقلاب الفاشل الذي قاده الشيوعيون سنة 1971 فقد حطم ما تبقى.

وبحلول ثورة 1985، كان الحزب الشيوعي السوداني قد فقد مصداقيته. أدى فشل الحزب في القيادة، بالإضافة إلى تراجع الحركة العمالية عالميا، إلى تمكين دكتاتورية عمر البشير من ترسيخ سلطتها على مدى الثلاثين عاما التالية، مما حول الحزب إلى كتلة من العجزة المهمشين.

عندما اندلعت "الثورة المجيدة" عام 2019، لم يكن الدور المحدود الذي لعبه الحزب الشيوعي السوداني ناتجا عن دعم جماهيري، بل عن وجود نخبة قليلة من القادة المخضرمين الذين تمكنوا بسرعة من الوصول إلى مناصب مؤثرة في الحركة مستغلين علاقاتهم السابقة، وليس بفضل أي تأثير حقيقي بين الشباب الثوري.

نظام البشير

كان انقلاب البشير سنة 1989 بمثابة انتصار للثورة المضادة التي أنهت ثورة 1985. سادت ردة رجعية مظلمة تحت حكم البشير والإسلاميين. اضطرت النقابات العمالية إلى العمل سرا، وتم رفع الأسعار وتخفيض الحد الأدنى للأجور.

أدرك البشير أنه على الرغم من الهزيمة النكراء التي مني بها العمال عام 1989، فإن الحكم بالسيف وحده لم يكن كافيا للحفاظ على نظامه. ففي نهاية المطاف، وحتى لو استغرق الأمر جيلا كاملا، سوف تستعيد الطبقة العاملة قوتها، وسينقسم النظام، وستضعف سلطته. كان وضع البشير محفوفا بالمخاطر، لكن ارتفاع أسعار النفط منحه هامشا للمناورة.

سمحت طفرة النفط في أواخر التسعينيات بتوسع سريع في الإنفاق الحكومي. بدأت أجزاء من الخرطوم تشبه

انقلاب 1989؛ البشير في الوسط

دبي، مع انتشار مشاريع البنية التحتية الضخمة في جميع أنحاء المدينة. بين عامي 1999 و2013، زادت ميزانية الحكومة ثلاثة عشر ضعفا. تم تقديم إعانات غذائية ضخمة للعمال والفلاحين، بينما تم إغراق الجيش في الثراء. وفي هذا السياق لم ينس البشير نفسه حيث تشير التقديرات أنه حول 9 مليارات دولار إلى حسابه الشخصي بحلول عام 2019.

وفي الوقت نفسه، واصل تأجيج التوترات الاثنية في غرب السودان، وخاصة في دارفور، مما أدى إلى الإبادة الجماعية عام 2005 التي راح ضحيتها أكثر من 300 ألف شخص. وكان الجناة هم الجنجويد، المعروفون أيضا باسم "جن يركبون الخيول". في سنة 2013، تم تنظيم هذه الميليشيا الإبادية في إطار قوة أطلق عليها اسم قوات الدعم السريع: وهي قوة شبه عسكرية أنشأها البشير خصيصا لتحصين نفسه ضد الانقلابات. واعتقد أنه من خلال التوازن بين القوات المسلحة السودانية الرسمية وبين قوات الدعم السريع، سيكون حكمه آمنا.

لكن هذه المعتقدات كانت خاطئة. ففي سنة 2011، نجح جنوب السودان في الحصول على استقلاله -بدعم من الإمبريالية الأمريكية-. وكانت علاقة الولايات المتحدة بالبشير متوترة.

الاستقلال الوطني لم يحقق التحرر الحقيقي للجنوب. عوض ذلك تسببت الانقسامات الاثنية والتدخلات الإمبريالية في اندلاع الحرب الأهلية في جنوب السودان والتي قُتل خلالها 400 ألف شخص، بين سنتي 2013 و2020.

سنة 2013، ومع انقطاع عائدات النفط من جنوب السودان، بدأ البشير حملة تقشفية. تم تخفيض إعانات الوقود، ما أدى إلى مضاعفة الأسعار بين عشية وضحاها. فخرجت الجماهير السودانية إلى الشوارع سيرا على خطى موجة الربيع العربي. وسرعان ما أظهر البشير طبيعته الوحشية، فذبح 200 شخص في محاولة منه للحفاظ على سلطته. ومع غياب أي دور لأحزاب المعارضة، وخوفها من النظام، وعدم وجود برنامج سياسي لحل الأزمة العميقة التي يعاني منها السودان بعد قرن من النهب الإمبريالي، اضطرت الحركة إلى التراجع مؤقتا.

تزامنت تلك الهزيمة المؤقتة للحركة سنة 2013، مع اكتشاف احتياطيات هائلة من الذهب في دارفور. بدا لوهلة أن النظام سيستقر. وسرعان ما أصبح الذهب السلعة الرئيسية في صادرات البلاد، واستُخدم لتمويل المدفوعات الضخمة للجيوش والإعانات المحدودة للطبقة العاملة.

لكن الذهب السوداني كان بمثابة كأس مسمومة. فمعظمه كان قريبا جدا من السطح، ومنتشرا على مساحة شاسعة. لذا فبدلا من أن يؤدي إلى تشجيع الإنتاج المركزي الذي تموله الشركات الاحتكارية الكبيرة والحكومة المركزية، تحول إنتاج الذهب إلى عدد هائل من المناجم الحرفية الصغيرة. كانت تلك المناجم تحت سيطرة مختلف الزعماء القبليين، مع وجود جماعات مرتزقة تفرض ظروفا مروعة. ونتيجة لذلك لم تتمكن الحكومة المركزية من إثراء نفسها بسهولة. ويُقدر أن 50% من إنتاج الذهب يُهرّب من السودان بطرق غير شرعية.

وبفضل ذهب دارفور الملطخ بالدماء، تحولت قوات الدعم السريع إلى منظمة قوية. فباعتبارهم تجار ذهب ومهربين وحراس حدود وميليشيات معادية للثورة، كل ذلك في كيان واحد، بدأوا في الصدام مع القوات المسلحة السودانية الرسمية. نجح البشير في التوازن بين هاتين القوتين المسلحتين، لكن خياراته كانت تتضاءل.

انقطعت إمدادات النفط من الجنوب، ونادرا ما كان الذهب في الغرب يصل إلى الخرطوم، وكان الاقتصاد العالمي يتخبط من أزمة إلى أخرى. وبحلول سنة 2016، كان الاقتصاد في حالة انهيار تام: انخفض

ملصق من ديسمبر/كانون الأول 2018

نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي بنسبة 31%، وارتفع التضخم إلى 122%، ولجأت الحكومة إلى صندوق النقد الدولي. وافق الصندوق على إنقاذ السودان، بشرط إنهاء الدعم عن السلع الأساسية، أي بعبارة أخرى، تحميل الطبقة العاملة عبء الأزمة. وقد استجابت الحكومة لهذا الشرط.

ارتفعت البطالة إلى 20%. ومع إلغاء الدعم، تضاعف سعر الخبز ثلاث مرات، وأصبح 45% من السكان يعيشون تحت خط الفقر. كل ذلك بينما كان الجيش، كجزء من استراتيجية البشير لتحصين نفسه ضد الانقلابات، ينغمس في الترف والبذخ، مستهلكا ما يصل إلى 70% من إيرادات الدولة.

كانت هذه الظروف هي التي دفعت عددا قليلا من المتظاهرين إلى النزول إلى الشوارع في دجنبر 2018. لقد كانوا الشرارة التي أشعلت الفتيل.

اندلاع الثورة

في 13 دجنبر 2018، تظاهر بضع عشرات من المتظاهرين بشجاعة في بلدة الدمازين، مطالبين بإعادة دعم الخبز. كانوا تحت قيادة تجمع المهنيين السودانيين، وهو ائتلاف صغير يضم ست نقابات عمالية.

وفي غضون عام أصبح الجهاز القيادي للثورة السودانية.

فورا اعتُقل المتظاهرون، فدعت نقابة الأطباء، المنضوية تحت لواء تجمع المهنيين السودانيين، إلى مزيد من الاحتجاجات. وفي 19 دجنبر، استجاب العمال أمام مقر تجمع المهنيين في عطبرة للدعوة وخرجوا تأييدا لها. ساروا حاملين رمز الخبز، وهتفوا "فليسقط حكم اللصوص!"[1]، وأحرقوا مقر حزب البشير في المدينة. وبعد انطلاق شرارة الثورة، اندلعت المظاهرات في جميع أنحاء البلاد.

هزّت حركة الجماهير أحزاب المعارضة. فمنذ عام 2005، وسّع النظام الديكتاتوري هامش الحريات السياسية بشكل طفيف. لكن عوض استغلال تلك المساحة لتحدي النظام، تكيفت الأحزاب الليبرالية معه. وفي الوقت نفسه، بقي الحزب الشيوعي، المتمسك بنظرية "المرحلتين"، يتبع الليبراليين.

عندما اندلعت الاحتجاجات العفوية التي قادها الشباب في عامي 2012 و2013، لم تلعب المعارضة أي دور حاسم. وقد وصفها الشباب بأنها "يائسة وهزيلة". وصارت الأحداث تهدد بجعلها هامشية بشكل كامل.

لذا قررت تلك الأحزاب، في فاتح يناير 2019، الانضمام إلى تجمع المهنيين السودانيين في ائتلاف واسع النطاق أطلق عليه اسم قوى الحرية والتغيير. وقد ضم ذلك الائتلاف كل من لم يكن جزءا مباشرا من النظام، بدءا من الحزب الشيوعي إلى الليبراليين، وصولا إلى الإسلاميين الساخطين في دارفور.

وعلى الرغم من أن تجمع المهنيين السودانيين كان القوة الأكبر، فإن الفصيل البرجوازي داخل قوى الحرية والتغيير هو الذي هيمن على المشهد. لم يكن قادة قوى الحرية والتغيير، مثل رئيس الوزراء السابق والأرستقراطي صادق المهدي، أو رجل الأعمال البارز الدقير، يتواجدون في الشوارع في ربيع 2019، بل في قاعات الاجتماعات والقصور في أنحاء العالم العربي.

كان برنامج تحالف قوى الحرية والتغيير غامضا وعاما، ومقتصرا على المطالب التي تقبلها الطبقة الرأسمالية. فقد دعوا إلى تشكيل حكومة انتقالية لتحقيق السلام والديمقراطية والعدالة وحقوق النساء والتنمية الاقتصادية. إلا أن عجز هذا التحالف تجلى في عدم قدرته على الاتفاق على مطالب ملموسة، حتى أن مسألة إلغاء الشريعة الإسلامية ظلت عالقة.

وبينما كانت قيادة الثورة منشغلة بتشكيل ذلك التحالف، لم يُضيع البشير وقتا. ففي 17 يناير، أرسل قوات القمع لترويع الجماهير.

اعتقلت الشرطة المتظاهرين وسحقت رؤوسهم بالأرصفة. لم يكن يهم هل هم رجال أو نساء أو أطفال أو كبار السن، فالنظام لم يكن يميز بين أحد. أطلقت قوات الأمن الغاز المسيل للدموع على المصلين أمام المساجد، وعندما حاول أحد الأطباء تقديم الإسعافات، أطلقت عليه الشرطة النار في الشارع. لكن الحركة استمرت في النمو. حضر خمسة آلاف شخص جنازة القتلى، وهتفت الجماهير "فليسقط! فليسقط! فليسقط!" ودوت أصداء تلك الاحتجاجات في أرجاء الخرطوم.

حظر البشير المظاهرات، لكن ذلك لم يمنعها من التزايد. كانت الجماهير قد تخلصت من خوفها من الحكومة.

من الاعتصام في مقر القيادة العسكرية بالخرطوم، أبريل/نيسان 2019 (© ضحى محمد)

قادت النساء السودانيات الصفوف، وشكّلن ما يصل إلى 70% من المتظاهرين، لأنهن كن أكثر من عانين من وطأة النظام. ففي كل سنة، كان يُعتقل ما بين 40.000 و50.000 امرأة ويُجلدن بتهمة ارتدائهن ملابس "فاضحة"، بما في ذلك ارتداء السراويل.

في الثامن من مارس، اليوم العالمي للمرأة العاملة، ذكّرت نساء السودان العالم بتقاليدهن الثورية الأصيلة. خرجت عشرات الآلاف من النساء في مسيرات، وهن يهتفن "كوني قوية أيتها المرأة!" و"هذه الثورة ثورة نسائية!". واقتحمن سجن النساء الرئيسي في الخرطوم، وأجبرن النظام على إطلاق سراح جميع المعتقلات اللواتي تم اعتقالهن لمشاركتهن في الثورة.

ملأ هذا النصر قلوب العمال في جميع أنحاء البلاد بالثقة. وبحلول نهاية مارس، شهدت 15 ولاية من أصل 18 ولاية سودانية احتجاجات جماهيرية، حيث انضمت جميع فئات الشعب الكادح والمضطهد إلى النضال.

سقوط البشير

مع اجتياح الثورة للبلاد بأسرها، تبنى تجمع المهنيين السودانيين موقفا حازما بضرورة سقوط البشير. ودعا إلى مسيرة حاشدة في 06 أبريل نحو المجمع العسكري في الخرطوم.

بدأ صباح 06 أبريل بتدفق محدود للمتظاهرين. شكك بعض المتظاهرين في عدد الحضور، لكن مع مرور الوقت، تدفق المزيد من العمال إلى الشوارع. وبحلول الوقت الذي اقتربت فيه المسيرة من المجمع العسكري، كان قد انضم إليها ما يقدر بنحو 800 ألف شخص. استلهم تجمع المهنيين السودانيين من الثورة المصرية عام 2011 واعتصام ميدان التحرير التاريخي، ودعا إلى اعتصام حاشد حتى سقوط النظام، حيث كتب:

«في هذه اللحظة التاريخية، نحثكم على مواصلة الاعتصام في الشوارع المحيطة بمقر قيادة القوات المسلحة، وفي كل موقع في أنحاء البلاد، حتى يتم القضاء على الطغيان نهائيا».[2]

من خلال الاعتصام، أنشأ الثوار مدينة داخل مدينة، وحاصروا الحكومة داخل قصورها. توقفت حركة المرور تماما، وكانت الجماهير في قمة الابتهاج. كُتب على إحدى اللافتات: "نعتذر عن الازدحام [المروري]. يجري اقتلاع النظام".[3]

آنذاك صار النظام يواجه خيارا صعبا: الإصلاح لتهدئة الحركة، أو القمع لسحقها. قرر البشير أن استخدام القوة الأشد وحشية مسألة ضرورية. في صباح العاشر من أبريل، بدأ بتجهيز قوات الدعم السريع لذبح الجماهير. وكان المفتي على وشك إصدار فتوى تجيز قتل 30% من المتظاهرين لاستعادة النظام.

لكن في ذلك الصباح، بدأت صفوف النظام تتفكك. لقد أدركوا أن السلطة تفلت من أيديهم وتنتقل إلى الشارع. شعروا أن الجيش نفسه يتصدع مع تزايد التآخي بين المتظاهرين والجنود يوما بعد يوم. ربما تستطيع الحكومة أن تأمر بمذبحة في حق 30% من الثوار، لكنهم خافوا أن تكون تلك آخر أوامرهم.

وإدراكا منه لتغيّر موازين القوى، اجتمع نائب الرئيس ابن عوف مع كبار جنرالات قوات الدعم السريع والقوات المسلحة السودانية، وقرروا معا ضرورة تنحي البشير.

أعلن نائب الرئيس للشعب انتهاء حكم البشير الذي دام ثلاثين عاما. وأعلن نفسه رئيسا جديدا للدولة، وقرر أن يحكم الجيش لمدة عامين حتى إجراء انتخابات ديمقراطية. وطالب بفض الاعتصام، وفرض حظر تجول عسكري.

لكن الجماهير رفضت التراجع. ففي اليوم السابق، 09 أبريل، رفع المتظاهرون شعار "تسقط بس"، وفي 10 أبريل، هتفوا "السقوط مجددا!". وتم تجاهل حظر التجول تماما. كان الوضع الحقيقي للسلطة واضحا للعيان. لم يأت الرئيس الجديد بأي استقرار يذكر. لذا، في 11 أبريل، تحرك الجنرالات مرة أخرى. أطيح بالرئيس الجديد، وتولى المجلس العسكري الانتقالي، وهو تحالف بين القوات المسلحة السودانية وقوات الدعم السريع، زمام الأمور.

تم إسقاط دكتاتورين اثنين في غضون 24 ساعة. كانت السلطة في أيدي الشعب، ومع ذلك فقد سمح تجمع المهنيين السودانيين للجنرالات باستعادتها. تغير وجه النظام مرتين، لكنه بقي قائما. لماذا لم تستطع الجماهير الاستيلاء على السلطة؟ لماذا فشل قادتها في اغتنام الفرصة؟

للإجابة عن هذا السؤال، يجب علينا أولا تحليل الفصائل المختلفة التي شكلت الثورة السودانية. ففي جانب الردة الرجعية كانت أبرز الفصائل هي قوات الدعم السريع والقوات المسلحة السودانية. أما في جانب الثورة، فكانت قوى الحرية والتغيير، وتجمع المهنيين السودانيين، والمنظمات العمالية العفوية.

جنين دولة عمالية

كان الاعتصام العمالي أمام المجمع العسكري هو القلب النابض للثورة، واستمر من 06 أبريل إلى 03 يونيو 2019.

أُقيمت داخل الاعتصام فصول دراسية لتعليم الأفكار السياسية وشرح أهداف الثورة. قدمت مطابخ مشتركة وجبات الطعام، التي كان يمونها عمال من خارج الاعتصام، ضمنوا توصيل الطعام بانتظام. وتم توفير محطات مياه في جميع أنحاء المكان.

كان الاعتصام بمثابة ساحة لنقاش سياسي حيوي. وألقيت الخطابات طوال اليوم، حيث ناقش الناس الخطوات التالية. تم نصب شاشة تلفزيونية عملاقة

داخل الاعتصام، أبريل/نيسان 2019 (© ضحى محمد)

لعرض رسائل التضامن الأممي. وفي المساء كانت تلك الشاشة نفسها تعرض أحدث مباريات كرة القدم. كانت الطبول والشعر والموسيقى حاضرة باستمرار، بينما كان الفنانون يرسمون جداريات على الجدران.

تسعى الطبقة السائدة دائما إلى الحفاظ على سيطرتها من خلال سياسة فرق تسد. فالتمييز الجنسي والعنصري والانقسامات الطائفية جزء لا يتجزأ من الحكم الرأسمالي. لكن الصراع الطبقي يملك القدرة على تجاوز هذه الانقسامات. داخل المخيم، كان بإمكان النساء التجول بحرية دون حجاب، والاختلاط بالرجال من نفس أعمارهن، وهو الشيء الذي كانت الحكومة تحظره بشكل كامل. كانت الانقسامات الدينية التي مزقت السودان بدأت تتلاشى. كان الأقباط المسيحيون يغطون المسلمين الذين يصلون بأقمشة لحمايتهم من شمس الظهيرة. وعندما حاولت الحكومة إثارة الفتنة بنشر دعاية عنصرية ضد أهل دارفور، رد الثوار قائلين: "يا العنصري المغرور، كل البلد دارفور".[4]

أثبت الاعتصام عمليا أنه إذا أتيحت الفرصة للعمال، فبإمكانهم تجاوز الأفكار المتخلفة والرجعية التي تنفثها الطبقة السائدة في المجتمع. أصبح الاعتصام بوتقة ثقافية، مقدما لمحة عما يمكن تحقيقه لو امتلك العمال زمام السلطة.

كان الاعتصام نفسه قد نظم بشكل عفوي من قبل العمال. ونشأت سلسلة من اللجان المنتخبة لإدارة شؤون الحياة اليومية. أشرفت لجنة الحماية على الأمن، وأقامت المتاريس، وراقبت نقاط التفتيش. ونسقت لجنة المؤن توزيع الطعام والشراب. وقدمت اللجنة الطبية العلاج للمصابين. ووفرت لجان التوعية التكوين السياسي للمشاركين، وسعت بوعي إلى معالجة قضايا مثل التمييز. وأخيرا، أشرفت اللجنة التنظيمية على جميع اللجان الأخرى، وأدارت توزيع الأعضاء.

كان التنظيم فعالا للغاية، لدرجة أن الشوارع داخل المنطقة الخاضعة لسيطرة الاعتصام كانت نظيفة، ومنظمة، ومُدارة بشكل جيد. في المقابل، ظلت الشوارع التي ما تزال تحت سيطرة الحكومة مهملة، ومغطاة بالقمامة. لقد تغلب حماس العمال وإبداعهم وجرأتهم على كل تحد واجهوه.

كان الاعتصام القلب النابض للثورة، لكن الثورة كانت لها شرايين وأوردة وشعيرات دموية، تمثلت في لجان المقاومة المحلية. نظمت كل لجنة العمال على المستوى المحلي، وكان أعضاؤها ينتخبون ديمقراطيا، حيث كانت كل لجنة تضم ما بين 40 و50 عضوا، وبلغ عدد اللجان ما بين 07 و10 لجان في كل حي.

برزت هذه اللجان في البداية باعتبارها أجهزة لتنظيم الاحتجاجات المحلية، وهي

داخل الاعتصام، أبريل/نيسان 2019 (© ضحى محمد)

المهمة التي كانت أساسية بعد حجب وسائل التواصل الاجتماعي. كان أعضاء لجان المقاومة يطرقون الأبواب لإبلاغ العمال بالمظاهرات القادمة. لكن مع ازدياد القمع، أصبحت الأساليب التقليدية خطيرة، لذا تعاونوا مع المتاجر والسكان المحليين للسماح للمتظاهرين بالاختباء قبل انطلاق المسيرات. عندها ومع سماع قرع الطبول، كان المتظاهرون يتدفقون على الشوارع، متغلبين على قوات الأمن.

ومع تطور الثورة واكتساب العمال الثقة في أنفسهم، توسعت مسؤوليات اللجان. فبدأت في تنظيم أسعار المواصلات العامة، وتنظيم توزيع الوقود، وإنشاء أسواق بقالة تُباع فيها المواد الغذائية بسعر التكلفة. كما نظمت حملات تنظيف الشوارع، ومشاريع بناء، ومبادرات محلية أخرى، وجمعت التبرعات من السكان. كان النطاق واسعا. فقد بلغ عدد اللجان 700 لجنة في الخرطوم وحدها، وأكثر من 3000 لجنة في أنحاء البلاد.

كانت تلك الاعتصامات ولجان المقاومة المحلية تمثل سلطة العمال في طور جنيني. سواء سميتها لجانا، أو سميتها كومونات، أو سوفييتات (أي المجالس بالروسية)، لا يهم. لقد كانت تمثل الجماهير التي أخذت زمام الأمور بأيديها، وصعدت إلى مسرح التاريخ لتقرر مصيرها، وتكافح من أجل بناء مجتمع جديد. وفي هذا الصدد لا تكتفوا بتصديق الماركسيين، اقرأوا ما كتبه أحد الكتاب ذوي الوعي الطبقي في صحيفة فايننشال تايمز، وهي صحيفة ناطقة باسم الطبقة البرجوازية، ما يلي:

«لا يمكن للمرء أن يجزم بما شعرت به روسيا عام 1917 عندما تمت الإطاحة بالقيصر، أو فرنسا عام 1871 في أيام كومونة باريس القصيرة الزاخرة بالمثالية. لكن لا بد أنها شعرت بشيء مشابه لما حدث في الخرطوم في أبريل 2019».[5]

كان الوضع الناشئ في السودان هو وضع "ازدواجية السلطة"، حيث تواجه الدولة البرجوازية هيئات ناشئة لسلطة العمال قادرة على السيطرة على المجتمع. لكن تلك السلطة العمالية الناشئة كانت ما تزال في مراحلها الجنينية.

لم يتم توجيه النداء للجان المقاومة المحلية لكي تتوحد، بل قوبل ذلك بمقاومة شديدة من قبل تجمع المهنيين السودانيين، الذي كان يُعلي من شأن التنظيم الأفقي. لقد عجزوا عن إدراك أن وضع ازدواجية السلطة أمر هش للغاية، ولا يمكن الحفاظ عليه إلى الأبد. فإما أن يحشُد العمال قواهم، ويسحقوا الدولة البرجوازية، ويصبحوا السلطة السيادية في المجتمع، أو أن تنتقل زمام المبادرة إلى يد الثورة المضادة.

لم يُسمع شعار "كل السلطة للجان المقاومة" قط خلال الاعتصام؛ ولم تخطر ببال أي من الأطراف المعنية فكرة الإطاحة بالدولة الرأسمالية واستخدام تلك اللجان كأساس لدولة عمالية.

ولم تظهر أولى المحاولات الضعيفة والمتأخرة لتوحيد لجان المقاومة إلا في عام 2022. لكن الثورة المضادة كانت قد سحقت الاعتصام بشكل كامل قبل ذلك بوقت طويل.

قيادة برجوازية صغيرة

بسبب ضعف المعارضة السياسية، لم يجد غضب الجماهير المتصاعد أي تعبير

سياسي. أما على الصعيد النقابي، فقد استحوذ النظام العسكري على النقابات التقليدية بالكامل. ولذلك اضطرت الفئات الأكثر كفاحية إلى البحث عن منظمات نضالية جديدة.

وكان تجمع المهنيين السودانيين أحد تلك المنظمات، الصغيرة لكن الكفاحية. يعود تاريخ تأسيسه إلى حراك عام 2012، وقد تأسس رسميا في صيف 2018 باعتباره تحالفا سريا لست نقابات عمالية: نقابات المحامين والأطباء والأساتذة والمهندسين والمعلمين.

عندما اندلع النضال في عام 2018، أظهر تجمع المهنيين السودانيين صمودا كبيرا، رافضا التراجع أمام قمع الدولة، مما عزز نفوذه السياسي في نظر الجماهير. وبهذه الطريقة، أصبح تجمع المهنيين السودانيين القيادة الفعلية بلا منازع للمراحل الأولى من الثورة.

ضمت صفوف تجمع المهنيين السودانيين العديد من المناضلين المخلصين والكفاحيين، لكن كلما ارتفع المرء في الهرمية التنظيمية ازداد تأثير أصحاب الياقات البيضاء والطبقة الوسطى. وقد انعكس ذلك في توجهات وأساليب قيادة المنظمة. فقد تم تنظيمها بشكل مقصود على أساس التوافق، بهيكل "لا مركزي" يعني أن أي خلافات كبيرة ستبقى دون حل. وكما هو الحال في أي منظمة "لا مركزية"، تكون الفئات المهيمنة هي تلك التي تملك أكبر قدر من الوقت والموارد، أي الطبقة الوسطى.

لعبت النظرة الإصلاحية البرجوازية الصغيرة لقيادة تجمع المهنيين السودانيين دورا كارثيا. فبتقبّلها التام لضرورة الرأسمالية السودانية، تقبّلت بالتالي ضرورة الدولة البرجوازية. في السودان، كان هذا يعني قبول سلطة الجيش، الذي كان جزءا لا يتجزأ من الدولة والطبقة السائدة.

لذلك، وعلى عكس الجماهير، غلب التشاؤم قيادة تجمع المهنيين السودانيين منذ البداية. كانوا يؤمنون إيمانا راسخا بفشل الثورة، وفي مقابلات أُجريت معهم حتى مارس 2019، تحدثوا عن ضآلة أملهم في أن تُطيح الاحتجاجات بالبشير.

كانت سياساتهم التوافقية تعني أن الموقف لم يُتخذ إلا بعد أن أصبح واضحا للجميع. لم تكن تلك قيادةً تُوجه الحركة نحو الأمام، بل كانت تسير في ذيلها.

وقد ازدادت تلك القيادة التوافقية توترا مع اشتداد الثورة. فعلى اليسار، انضمت قوى جديدة، أيقظتها الثورة، إلى صفوف تجمع المهنيين السودانيين. وفي الوقت نفسه، عادت القيادة القديمة التي كانت في السجن أو المنفى مع تقدم الثورة. لكن هؤلاء كانوا الفئة الأكثر انتماء للطبقة الوسطى، واصطدمت بالقيادة السرية التي قادت الثورة فعليا من دجنبر إلى أبريل.

بل إن الجناح اليميني في تجمع المهنيين السودانيين طالب بالتوقف عن لعب أي دور قيادي في الثورة. وقالوا: "نحن نقابيون ولسنا سياسيين"، ويجب أن يكون من حق الأحزاب السياسية أن تقرر مسارها. لا يمكن فهم هذا الموقف إلا بإدراك أن العديد ممن طرحوه كانوا أعضاء في أحزاب سياسية أخرى، وكانوا سيستفيدون إذا تخلى تجمع المهنيين السودانيين عن دوره السياسي القيادي.

كانت المشكلة تكمن في وجود جانب من الحقيقة في انتقادات اليمين. فإذا كان تجمع المهنيين السودانيين يلعب دورا سياسيا قياديا، فلا يمكنه الاكتفاء بكونه مجرد تنظيم نقابي. بل كان لا بد من وجود حزب سياسي، ببرنامجه السياسي الخاص حول كيفية إعادة هيكلة المجتمع.

النزعة النقابوية، التي تفترض أن الطبقة العاملة لا تحتاج إلى حزب سياسي، قد تم دحضها مرارا وتكرارا. إن تحطيم سلطة الدولة عمل سياسي، وإنشاء دولة عمالية والبرنامج الذي يجب أن تنفذه هما العملان الأكثر سياسية. وبسبب فشله في التخلي تماما عن تلك الأساليب، فقد أعاق تجمع المهنيين السودانيين الثورة في كثير من الأحيان بدلا من قيادتها.

وبمجرد سقوط البشير في 10 أبريل، فوجئ تجمع المهنيين السودانيين، ولم تكن لديه أدنى فكرة عما يجب فعله بعد ذلك. فبدلا من توجيه الدعوة الفورية إلى لجان المقاومة لتولي السلطة، وإلى انفصال جنود الجيش عن الجنرالات وعزلهم، وإلى إضرابات عامة واسعة النطاق لتحقيق ذلك، تردد القادة وانخرطوا في النقاشات فيما بينهم.

أما الجنرالات فلم يضيعوا أي وقت. فقد انتزعت القوات المسلحة وقوات الدعم السريع السلطة من الشارع، واستمرتا في تطبيق النظام القديم مع فقدان شخصيتين قياديتين فقط. وبدلا من المطالبة بإسقاطهما، قال تجمع المهنيين السودانيين إنه يجب التفاوض مع من انتزعوا السلطة من يد الجماهير.

إن محاولة فصل السياسة عن النضال العمالي والجماهيري، إلى جانب بناء توافق واسع النطاق، أدت مباشرة إلى تكرار أخطاء سياسات "الجبهة الشعبية". ورغم أن ذلك لم يكن مفهوما بشكل واعٍ بالضرورة، فإن إنشاء قوى الحرية والتغيير كان صدى لـ"الجبهة الشعبية" الكارثية للجمهورية الإسبانية في ثلاثينيات القرن العشرين.

تتلخص فكرة الجبهة الشعبية في ضرورة تحالف العمال مع البرجوازية "التقدمية" لتحقيق مكاسب ديمقراطية ليبرالية والدفاع عنها. كانت تلك التكتيكات فاشلة تماما في ثلاثينيات القرن العشرين، وقد أثبتت فشلها في السودان في الستينيات، وكذلك تكرر سنة 2019.

امتدت قوى الحرية والتغيير من تجمع المهنيين السودانيين إلى الحزب الشيوعي، مرورا بالليبراليين، وصولا إلى الإسلاميين المنشقين. كان العامل الوحيد الذي يوحدها هو ضرورة سقوط البشير؛ وبمجرد تحقيق ذلك، بدأت تتفكك إلى مكوناتها الأصلية.

تفاوضت قوى الحرية والتغيير سرا مع المجلس العسكري الانتقالي في ماي، وذلك وراء ظهر الجماهير. تمسك الليبراليون بموقف تشكيل حكومة مشتركة عسكرية ومدنية، والسماح بتأجيل قضايا مثل اضطهاد النساء والمعاناة الاقتصادية للشعب. نبع ذلك من الوضع الطبقي للبرجوازية، التي كانت تسعى جاهدة لفرض القانون والنظام، خوفا من أن يخرج جني الثورة من قمقمه، ويرفض أن يعود.

أدرك قادة الجيش الانقسامات الكامنة أفضل بكثير من قادة العمال. فاستغلوا فصائل مختلفة من قوى الحرية والتغيير ضد بعضها البعض طوال الثورة، وبذلك حافظوا على سيطرتهم. وفي نهاية المطاف أدى غياب برنامج سياسي يساري واضح وحاسم إلى توجه الجميع نحو اليمين.

كانت الجماهير تتطلع إلى تجمع المهنيين السودانيين بسبب عدم وجود بديل سياسي آخر مطروح مسبقا. وكان التجمع يتطلع إلى قوى الحرية والتغيير، مدعيا أنه بما أن التجمع ليس منظمة سياسية، فليس له الحق في القيادة. وكان قادة قوى الحرية والتغيير البرجوازيين الصغار يتطلعون إلى الليبراليين ورؤيتهم لسودان ديمقراطي، لكن رأسمالي. وكان الليبراليون يتطلعون إلى المحافظين لضمان عدم تجذر الثورة وتهديد الملكية الخاصة. وكان المحافظون يتطلعون إلى المجلس العسكري الانتقالي، الذي كان يخطط لإخماد الثورة بأكملها بالدماء.

الجيش يتفكك

كان المجلس العسكري الانتقالي يتألف من فريقين: القوات المسلحة السودانية وقوات الدعم السريع.

كانت القوات المسلحة السودانية هي الجيش السوداني الرسمي بقيادة اللواء البرهان. افتقر البرهان إلى الكاريزما الفطرية، وكان وصوله إلى منصب رئيس الدولة الفعلي بعد سقوط البشير محض صدفة. إنه جنرال بكل ما تحمله الكلمة من معنى، فعندما أعلن الحكم العسكري في 11 أبريل، لم يكن ذلك خطابا سياسيا، بل أوامر صارمة من رقيب تدريب.

كانت نقطة الضعف الأكبر للقوات المسلحة السودانية هي تركيبتها: فالجنرالات مكون أساسي من مكونات الطبقة السائدة، بينما الجنود العاديون من عامة الشعب. وقد كان من الحتمي أن تجد نفس موجة القوى الاجتماعية التي حركت الجماهير صدى لها في صفوف القوات المسلحة السودانية.

يختلف وعي الجيش عن وعي الشرطة. يتم تدريب الجيش على أنه يدافع عن الوطن، ويضحي بأرواحه من أجل الشعب في الداخل. لذا فإنه بمجرد أن يأمر الجنرالات الجيش بتوجيه أسلحتهم نحو صدور الشعب، قد ينقسم الجيش على أسس طبقية، بل ويتفكك تماما. هذا ما حدث بالضبط عام 1985 وأدى إلى سقوط نميري. وقد تكررت السيرورة نفسها حاليا.

ناشدت لجان المقاومة المحلية الجنود الانشقاق. وتم توفير ملاذات آمنة للجنود المنشقين في المنازل للاختباء من الضباط الساعين للانتقام. رحبت لجان المقاومة بالجنود المنشقين كأبطال، ومع انتشار الخبر بين صفوف الجيش، حذا المزيد والمزيد حذوهم.

جميع أطياف الثورة مارست الضغوط على الجيش. وعندما عاد أحد الجنرالات إلى منزله، اكتشف بصدمة أن ابنته قد انضمت إلى الثورة. أثناء العشاء، توسلت إليه قائلة: "لا تطلقوا النار علينا يا أبي!".[6]

مناشدات الجماهير العفوية هزّت الجيش من رأسه إلى قاعدته. كان الجنود يعتقلون النشطاء أمام قادتهم، ثم يقتادونهم إلى زقاق، ثم ما إن يغيبوا عن الأنظار حتى يطلقوا سراحهم، وبعد ذلك يخبرون قادتهم أن الثوار تمكنوا من الفرار. وعندما كان قادتهم يأمرونهم بالتحرك إلى مواقعهم، كانوا يماطلون ويتلكؤون، وفي بعض الحالات يرفضون رفضا قاطعا.

قنينة غاز مسيل للدموع مستعملة أُطلقت على المحتجين، 17 يناير/ كانون الثاني 2019 (© ضحى محمد)

كان الجنرالات يعلمون أن صدور أمر واحد واضح وحاسم من قيادة الثورة سيكون كفيلا بدفع القوات المسلحة السودانية بأكملها إلى الانهيار، إذ سينشق الجنود **بشكل جماعي**. لكن ذلك النداء لم يصدر قط. بقيت الانشقاقات شأنا محليا وعفويا. لم يشن تجمع المهنيين وقوى الحرية والتغيير حملة جماعية ومنهجية بين صفوف الجنود لحثهم على الانشقاق، أو لكسر شوكة الجيش على أسس طبقية. بل حاولوا التفاوض معه.

ومع ذلك فإن الحالة المزاجية التي كانت سائدة داخل القوات المسلحة حالت دون استخدامها كسلاحٍ في يد الردة الرجعية. ولذلك فقد اعتمدت الطبقة السائدة على الفصيل الآخر داخل المجلس العسكري الانتقالي، أي قوات الدعم السريع.

الردة الرجعية الوحشية

قوات الدعم السريع في الأساس منظمة مرتزقة. استندت هذه الحركة على البدو العرب الذين شعروا بأن نمط حياتهم برمته يتلاشى مع توسع رقعة الصحراء بفعل تغير المناخ. وبانضمامهم إلى قوات الدعم السريع، تمكنوا من جني أموال

طائلة من خلال الاستغلال الوحشي لمناجم الذهب المكتشفة حديثا والمنتشرة في دارفور.

أحدثت الثورة تحولا جذريا في قوات الدعم السريع من ناحيتين: أولا، فشلت مطالب الثورة -حقوق النساء، وحقوق العمال، وإلغاء الشريعة الإسلامية- في تقديم أي تحسين ملموس لأعداد هائلة من الفلاحين والرعاة الذين يواجهون الكارثة الاقتصادية والبيئية التي تتكشف في جميع أنحاء منطقة الساحل الشرقي. كان لا بد من برنامج اشتراكي جريء للقضاء على فقر الجماهير الريفية من أجل كسب تأييدهم، لكن الليبراليين في الخرطوم طرحوا شعارات "الديمقراطية" و"حقوق الإنسان" على شرائح بالكاد تستطيع الدولة نفسها الوصول إليها. استغل زعماء القبائل الرجعيون هذا الفراغ وعبأوا أنصارهم ضد الثورة. وبينما اختلطت صفوف القوات المسلحة السودانية بالثوار، تحولت قوات الدعم السريع إلى قوات الصدمة المتشددة في يد الثورة المضادة.

ثانيا، استشعر قائدهم، محمد حمدان دقلو، المعروف باسم حميدتي، فرصة كبيرة في الأفق. فبعد أن بدأ حياته راعيا بسيطا للإبل، استغل قوات الدعم السريع ليصبح أحد أقوى الرجال في البلاد. ورغم الاستهانة المستمرة به من قبل الطبقة السائدة في الخرطوم، فقد عزّز حميدتي سيطرته على دارفور. ومن هناك كسب تأييد الطبقة السائدة عبر وحشية قوات الدعم السريع، وسرعان ما بدأ في عقد تحالفات مع قوى أجنبية مختلفة، كالإمارات العربية المتحدة، لتعزيز موقعه أكثر.

منذ سنة 2013، وجد له حليفا غير متوقع في شخص الاتحاد الأوروبي. كان الاتحاد الأوروبي يسعى جاهدا لوقف تدفق المهاجرين من شرق أفريقيا، وكان السودان ممرا رئيسيا لعبورهم. قدم حميدتي نفسه على أنه "سيد الهجرة"، والقوة الوحيدة القادرة على السيطرة على الحدود الغربية، وقد استغل الاتحاد الأوروبي ذلك. تم ضخ مئات الملايين من اليوروهات في صناديق قوات الدعم السريع خلال العقد الماضي كجزء من تلك الصفقة المشؤومة. وفي سنة 2022، تبين وجود مدربين عسكريين إيطاليين يدربون جنود قوات الدعم السريع على منع اللاجئين من دخول أوروبا.

استهجن قادة القوات المسلحة تهديد سلطتهم ومكانتهم من قبل هؤلاء البدو القبليين. لكن وعلى الرغم من الكراهية الشديدة المتبادلة بين المجموعتين، فقد حافظتا دائما على جبهة موحدة لسحق الثورة.

تحالفت قوات الدعم السريع والقوات المسلحة لإزاحة البشير. وحكمتا معا، بأشكال مختلفة، حتى أبريل 2023 حين وجّهتا أسلحتهما أخيرا ضد بعضهما البعض.

الإضراب العام في ماي 2019

هكذا كانت الأمور في أبريل 2019: كانت الجماهير تكتسب الثقة والقوة؛ فقد أطاحت بالبشير، وانتشرت لجان المقاومة على نطاق واسع. وذلك على الرغم من القيادة البرجوازية الصغيرة لتجمع المهنيين السودانيين، التي تفاجأت بإنجازات الثورة. تجمع المهنيين السودانيين الذي أصيب بحالة من الدوار، شكل جبهة شعبية

تآخٍ بين محتج وجندي من القوات المسلحة السودانية (SAF)، في الطريق إلى الاعتصام، 16 أبريل/نيسان 2019 (© أحمد علي)

أمد الأحداث حتى تفقد الثورة زخمها. أدركا أن الاعتصام لا يمكن أن يستمر إلى ما لا نهاية. ومع دخول شهر ماي، انخفض عدد المتظاهرين من مئات الآلاف إلى عشرات الآلاف.

وفي غضون ذلك شنت الطبقة السائدة حملة تشهير شرسة ضد الاعتصام. زعموا انتشار الدعارة فيه على نطاق واسع، وأنه يعج ببائعي المخدرات والكحول، وأن القانون والنظام قد انهارا. لكن ما كان ينهار هو القانون البرجوازي والنظام البرجوازي. وتحت جنح الظلام كانت قوات الدعم السريع تهاجم الاعتصام، وتمارس العنف والقتل بحق العمال كلما سنحت لها الفرصة.

في 14 ماي، أعلن المجلس العسكري الانتقالي أن المفاوضات مع قوى الحرية والتغيير قد أسفرت عن اتفاق. نص الاتفاق على فترة انتقالية مدتها ثلاث سنوات من الحكم العسكري والمدني المشترك، تليها انتخابات تُخصص فيها مسبقا ثلث المقاعد للقوى المعادية للثورة. وطالب المجلس العسكري بفض الاعتصام كجزء من الاتفاق.

استشاط العمال غضبا. فقد طلب منهم التخلي عن الثورة تماما. وتحت ضغط هائل من طرف الجماهير، ندد تجمع المهنيين بالاتفاق الذي رضخت له بقية قوى الحرية والتغيير، ووافق على تنظيم إضراب عام وطني لمدة يومين كدليل على القوة والتضامن.

في 28 ماي، شُلت الحركة في السودان.

شن تجمع المهنيين إضرابا سيُسجل بكونه واحدا من أقوى مظاهر قوة الطبقة العاملة في التاريخ. ففي العاصمة بلغت نسبة الالتزام بالإضراب ما يقارب 100%. وفي جميع أنحاء البلاد، لم يعد يهم إن كانت مستشفيات أو مصافي نفط، بنوك أو وزارات حكومية، مطارات أو مطاحن دقيق؛ فقد تأثرت جميع القطاعات بمجرد أن تحرك العمال بشكل حاسم.

حظي الإضراب أيضا بدعم هائل بين موظفي الدولة، من البنك المركزي، وإدارة الضرائب، ووزارة العمل. طرح ذلك بوضوح مسألة السلطة: إذا كان من يديرون أجهزة الدولة قد استجابوا لقادة الإضراب وليس للحكومة، فمن هي الحكومة الحقيقية إذا؟

أصدرت لجان الإضراب تباعا قرارات تعلن فيها استعدادها للنضال حتى النهاية.

وقد أعلنت لجنة الإضراب في بورتسودان:

«نؤكد مجددا استعدادنا واستجابتنا لجميع قرارات تجمع المهنيين السودانيين في بورتسودان في سياق استعادة السلطة المدنية والسيادة الكاملة، ونعلن استعدادنا للعصيان المدني والإضراب السياسي المفتوح حتى تسليم السلطة إلى المدنيين. وكما قلنا سابقا، التعليمات منكم والتنفيذ علينا».[7]

عناصر من قوات الدعم السريع خلال تظاهرة مؤيدة للمجلس العسكري في الخرطوم، 29 يونيو/حزيران 2019 (AP / Alamy ©)

تحولت اعتصامات الصباح إلى مسيرات حاشدة بعد الظهر. وثبت عجز الدولة. ظهرت قوة العمال بأنها لا تُقهر.

حاولت قوات الدعم السريع استعادة السيطرة على الوضع بواسطة الترهيب. اقتحمت شركة الكهرباء في محاولة لكسر إضراب العمال واعتقال قادتهم. لكن العمال تقدموا وأعلنوا أنهم سيقطعون الكهرباء عن جميع مباني ومنشآت قوات الدعم السريع إذا تم تنفيذ الاعتقالات. فاضطر الرجعيون إلى التراجع.

كان الدرس واضحا: لا عجلة تدور، ولا مصباح يومض، ولا هاتف يرن دون إذن الطبقة العاملة. وبمجرد إطلاق العنان لهذه القوة، لا شيء يستطيع إيقافها.

لكن هذه القوة لم تُطلق بالكامل. إذ لم يكن الإضراب جزءا من حملة أو استراتيجية لإزاحة القادة العسكريين بالقوة وإسقاط الدولة البرجوازية بأكملها. بل كان جزءا من دعوة لإقناع القادة العسكريين بالتنحي وتشكيل حكومة ديمقراطية ليبرالية. لكن الليبراليين في قوى الحرية والتغيير كانوا قد أبرموا صفقة بالفعل. وكانت تلك الصفقة تحديدا هي ما عارضه العمال.

لم تطرح قيادة تجمع المهنيين السودانيين برنامجا سياسيا مستقلا للطبقة العاملة، بل أبقته دائما ضمن حدود الديمقراطية البرجوازية، والتي كانت تعني في حالة السودان الحكم العسكري، مع وجود شخصية مدنية رمزية في أحسن الأحوال. أدرك الجيش ذلك، فلم يخش قوى الحرية والتغيير، ولا قادة تجمع المهنيين السودانيين. كان ما خشيه حقا هو الجماهير، التي كانت محرك الثورة بأكملها. لم يؤد الإضراب العام في ماي إلى إسقاط قادة الجيش، لكنهم كانوا حريصين على عدم منح العمال فرصة أخرى.

سوط الثورة المضادة

تجرأ العمال على إظهار قوتهم في ماي، والآن قرر الجيش أنهم بحاجة إلى تلقينهم درسا بواسطة الإرهاب. وأنه لا بد من سحق الاعتصام.

كانت الساعة الخامسة صباحا من يوم 03 يونيو 2019. تجمع آلاف من رجال الشرطة وقوات الدعم السريع في محيط مكان الاعتصام. كانوا مسلحين ببنادق كلاشينكوف من جهة، وسياط وهراوات من جهة أخرى. أُعطيت الإشارة فانطلق مسلسل الرعب.

على مدار ساعتين، اجتاحت قوات الدعم السريع مكان الاعتصام. وأطلقوا النار على الرجال والنساء والأطفال بدم بارد. تعرض آخرون للجلد حتى الموت كدليل على الإذلال. واغتُصبت النساء بوحشية. وتم ربط الجرحى بالحجارة وألقوا في النيل. بينما تم تقطيع آخرين بالسيوف.

بحلول الساعة السابعة صباحا، كان أكثر من 200 من الثوار قد ذُبحوا. تم صب البنزين في خيم الاعتصام وأحرقت حتى سويت بالأرض. تصاعد الدخان بكثافة في سماء الخرطوم، في رسالة واضحة للجميع.

انتشرت قوات الدعم السريع على دراجاتها النارية، تنشر الرعب أينما حلت. جلدوا المتظاهرين حتى الموت، ونهبوا المحلات، ونشروا الحرائق والدمار في ربوع المدينة.

حميدتي (جالساً على شاحنة) محاطاً بجنود قوات الدعم السريع خلال تجمع قبلي مؤيد للمجلس العسكري في ولاية شرق النيل، 22 يونيو/حزيران 2019 (© AP / Alamy)

على اليمين: البرهان في حفل إيذاناً ببدء "الحكم الانتقالي"، 17 أغسطس/آب 2019 (© AP / Alamy) / على اليسار: حميدتي في تجمع حاشد، في جلاوي، شمال السودان، 15 يونيو/حزيران 2019 (© AP / Alamy)

على عكس ما يبدو، فإن الإرهاب لم يكن عبثا. إنه استراتيجية سياسية تتبعها الطبقة السائدة لترهيب العمال وإخضاعهم. تحاول الطبقة السائدة أن تؤكد للعمال: نحن أقوياء، وأنتم ضعفاء، وليس أمامكم خيار سوى الخضوع.

وبينما كانت قوات الدعم السريع تحمل العصا بيد، كانت القوات المسلحة تحمل الجزرة باليد الأخرى. أعلنت القوات المسلحة إلغاء المفاوضات مع قوى الحرية والتغيير. زعمت أن قوى الحرية والتغيير أخطأت في قبول إجراء الانتخابات بعد أربع سنوات، وأنه سيتم إجراء الانتخابات بعد تسعة أشهر، وستبدأ الاستعدادات لها. كان أملهم أن يقبل العمال الآن بتنازل ظاهري، خوفا من أهوال أكبر تنتظرهم.

لكن العمال لم يستسلموا للترهيب. لقد خرجوا إلى الشوارع عقب صلاة الجمعة في السابع من يونيو، مطالبين بإسقاط المجلس العسكري الحاكم، ورفع كثيرون شعار الإضراب العام. في ظل تلك الظروف، رفض تجمع المهنيين الاتفاق، وأعلن عزمه تنظيم أكبر مسيرة يشهدها السودان في 30 يونيو، بعد مرور 30 عاما بالضبط على تولي البشير السلطة.

مع انقطاع وسائل التواصل الاجتماعي، جال قادة تجمع المهنيين أنحاء البلاد لنشر خبر المسيرة. ومع قمع المظاهرات، التقوا بلجان المقاومة المحلية في الأحياء وعملوا من خلالها لأجل التنظيم. وكانت وقفات الحداد والجنازات من أهم وسائل التنظيم السياسي.

في التاسع من يونيو، تمت الدعوة إلى إضراب عام شامل، وتوقفت المطارات والبنوك والمستشفيات والمصانع عن العمل مجددا. وتمت الدعوة إلى مسيرات حاشدة، وشارك الناس في الإضراب رغم الغاز المسيل للدموع والذخيرة الحية التي واجهوها.

في 30 يونيو، تظاهر مليون شخص، وهتفوا:

"حرية! حكم مدني! الثورة بدأت للتو!"

"الطلقة ما بتقتل، يقتل سكات الزول!".[8]

لقد تمكنت الحركة الجماهيرية الهائلة من إيقاف الثورة المضادة رغم كل محاولات القمع. وعادت القوة والمبادرة إلى جانب الثوار. لكن المبادرة تحتاج إلى استراتيجية وقيادة، وهو ما كان ما يزال مفقودا.

خيانة يوليوز

لم يكن هناك ما يمنع أن يكون 30 يونيو 2019 هو اليوم الذي تتم فيه الإطاحة بالجيش. ومرة أخرى سنحت الفرصة لانتقال السلطة إلى أيدي العمال.

لكن تجمع المهنيين السودانيين كان يؤمن إيمانا راسخا بضرورة تشكيل تحالف واسع مع الليبراليين، وهو ما يعني عمليا التحالف مع الجيش. فطوال فترة الثورة، كان قادة تجمع المهنيين السودانيين يخشون بشدة احتمال اندلاع حرب أهلية. تمسكوا بالسلمية في كل الأوقات، وتبنوا واقع أن الثوار لم يتسلحوا حتى في مواجهة أبشع أنواع العنف ونوهوا بذلك.

لم تكن تلك الدعوة إلى السلمية استراتيجية للسلام، بل وصفة للهزيمة والموت على نطاق أوسع كما حذرنا حينها، عندما قلنا:

«إذا انحرفت الثورة عن مسارها، فلن تتردد قوات الدعم السريع في إشعال أشد الحروب الأهلية دموية إذا كان ذلك يخدم غرض إبقاء النخبة المتميزة في السودان في السلطة».[9]

وقد تأكدت هذه الكلمات. فالإخفاق في الإطاحة بالجيش وضع الأساس لاندلاع الحرب الأهلية السودانية الثالثة، وهي الكارثة الأكثر دموية في تاريخ السودان. العنف ليس سياسة، بل هو نتيجة منطقية للصراع بين الطبقات. إن رفض العنف بجميع أشكاله وفي أي وقت، يُضعف الثورة، مما يسمح للطبقة السائدة بسحق الجماهير وذبحها. وقد كان ذلك

الأمر غير مبرر في المرحلة الحاسمة التي كان السودان يمر بها.

لم تكن الشعارات الأخلاقية كافية. كان المطلوب هو كسر احتكار الدولة الرأسمالية للعنف -من خلال تشكيل لجان المقاومة لميليشيات دفاعية عمالية. كانت تلك الميليشيات ستضع الأساس لانتقال السلطة بالكامل إلى يد الطبقة العاملة.

ومن المفارقات هو أنه لو كانت القيادة أقل تمسكا بأوهام السلمية، لكان قد تم بشكل شبه مؤكد حقن دماء كثيرة. لكن بدلا من ذلك، مهد التزامهم الأيديولوجي باللاعنف الطريق لخيانة يوليوز، وفي نهاية المطاف للحرب الأهلية الحالية.

لم تكن لهذا التعلق الصنمي بالسلمية أي جذور راسخة في التقاليد الثورية للجماهير السودانية، بل كان نتيجة لعمل حثيث من جانب الليبراليين الغربيين في أعقاب فشل انتفاضة 2013. سعت منظمات غير حكومية، مثل فريدوم هاوس ومعهد السلام الأمريكي -وهما أداتان رئيسيتان للقوة الناعمة الأمريكية- إلى التحالف مع "الثوريين" الليبراليين. فبعد أن فقدت الولايات المتحدة الكثير من نفوذها في السودان عقب دعمها لانفصال جنوب السودان، صارت تتطلع إلى ترسيخ مكانتها لدى خلفاء النظام المحتملين.

على مدى ست سنوات، عملت منظمات مثل فريدوم هاوس على استقطاب وتدريب القادة الناشئين من بين الجماهير. ونظمت ورشات عمل تركز على التكتيكات اللاعنفية والمبادئ السياسية الليبرالية. وتم نقل مشاركين مختارين إلى الخارج، واستمالتهم، وتأهيلهم لممارسة التأثير. كان الهدف واضحا: تنشئة جيل جديد من القادة الموالين لليبرالية والغرب. ونظرا للغياب التام للقيادة اليسارية، فقد نجحوا في مهمتهم. فقد كونت الإمبريالية الأمريكية، بوعيٍ تام، العديد من الشخصيات البارزة داخل تجمع المهنيين السودانيين وقوى الحرية والتغيير، ليصبحوا كوادر ليبرالية.

في بداية الثورة، حين كان تجمع المهنيين يناقش ما إذا كان سيطالب بتغيير النظام أم برفع الأجور فحسب، كان هؤلاء العملاء المدربون في الخارج هم من ضمنوا الخيار الثاني. فقد أصبحوا أشد المدافعين عن السلمية وأشد معارضي حق العمال في الدفاع عن أنفسهم.

وفي غضون ذلك مارست القوى الإمبريالية ضغوطها عبر قنوات أخرى أيضا. فقد كانت الولايات المتحدة والإمارات وبريطانيا والسعودية يسعون جاهدين لإنهاء الموجة الثورية، خشية امتدادها إلى بقية بلدان المنطقة. جادلت قوى الحرية والتغيير بأن اتفاقا لتقاسم السلطة مع الجيش هو السبيل الوحيد لمنع الحرب الأهلية. واستسلم قادة تجمع المهنيين وأعلنوا أنه: "ليس أمامنا خيار [إلا قبول الاتفاق]"، لأنهم كانوا عاجزين عن إيجاد أي سبيل للمضي قدما دون موافقة شريحة على الأقل من الطبقة البرجوازية.[10]

وهكذا، ففي 09 يوليوز 2019، وافقت قوى الحرية والتغيير على تشكيل حكومة انتقالية "تكنوقراطية". كان من المقرر أن يتألف المجلس من خمسة ممثلين مدنيين عن قوى الحرية والتغيير، وخمسة ضباط عسكريين، وعضو واحد يُفترض أنه "محايد"، ليشكلوا مجلسا سياديا. واتضح لاحقا أن هذا "المحايد" هو جنرال متقاعد. وكان من المقرر أن يرأس المجلس نفسه شخص معين من العسكر، على أن تُجرى الانتخابات بعد ثلاث سنوات.

وهكذا لم تسفر ستة أشهر من النضال البطولي للطبقة العاملة السودانية إلا عن تعديل سطحي في المناصب العليا. حل محل عمر البشير عبد الله حمدوك، الخبير الاقتصادي الليبرالي الذي كان يعمل سابقا في الأمم المتحدة، والذي لم يكن له أي دور في الثورة حتى ذلك الحين. لكن آلة الدولة الرأسمالية بقيت سليمة تماما.

حَكم حمدوك لمدة عامين ونصف، ولم يحقق شيئا.

حمدوك: الليبرالي العاجز

تم اختيار عبد الله حمدوك على أساس أنه بدا وكأنه يُرضي الجميع. كان في شبابه عضوا في الحزب الشيوعي، لكنه استبدل عضويته الحزبية منذ زمن بعيد ببدلة وربطة عنق مفوض في الأمم المتحدة. أدرك الجيش أن حمدوك لا يمثل أي تهديد على الإطلاق. بل كان يعتبر طيعا إلى درجة أن البشير فكر سنة 2018 في تعيينه مستشارا اقتصاديا.

احتفلت الجماهير بذلك باعتباره نصرا كبيرا، لكن قادة الجيش كانوا يعلمون أنه حتى لو حاول حمدوك إحداث تغييرات جذرية، فإنهم يمتلكون زمام الأمور. ولتأكيد ذلك رفض الجيش منح حمدوك أي سكن عند وصوله إلى الخرطوم. فاضطر خلال الأشهر الأولى من ولايته بصفته رئيسا للوزراء، إلى العمل من شقة أحد أصدقائه.

لم يختلف حمدوك عن البشير فيما يتعلق بالاقتصاد. فقد كان حريصا على خفض الدعم المقدم للطبقة العاملة، الذي اعتبره عبئا على الاقتصاد، بينما رفض في الوقت نفسه اقتطاع أي مبلغ من الإنفاق العسكري الضخم. وترك الاقتصاد بين أيدي الرأسماليين الفاسدين المحليين والأجانب، والذين تسببوا في تشكيل طوابير طويلة للباحثين عن الخبز في جميع أنحاء الخرطوم، وحيث قامت شركات الكهرباء بقطع التيار الكهربائي عن المدينة لفترات طويلة، بينما توقفت الجرارات عن العمل في منطقة النيل الخصبة، بسبب نقص الوقود.

سرعان ما بلغ التضخم 363%، وتجاوزت نسبة الدين العام إلى الناتج المحلي الإجمالي 200%.

أما فيما يتعلق بالحقوق المدنية، فقد خضع حمدوك للجيش. واستمر في فرض الرقابة على الصحافة، واستخدم أجهزة

الدولة للتجسس على بعض أبرز نشطاء الثورة، ورفض إجراء أي تحقيق في مجزرة 3 يونيو.

كانت لجان المقاومة ما تزال تشكل تحديا محتملا، لكنها كانت تعاني من انخفاض الروح المعنوية بشكل متزايد، وقد استغل حمدوك ببراعة الصراعات داخل صفوفها. بدأت فكرة أن تعمل لجان المقاومة في المقام الأول باعتبارها هيئات للتضامن بدلا من أن تكون أدوات لبناء دولة عمالية جديدة، تكتسب زخما. وقد قيل إن دورها ليس وضع أسس سلطة العمال، بل أسس دولة رفاه جديدة.

وقد شجعت الحكومة الانتقالية ذلك التحول بشكل فعال. أضفت الشرعية على اللجان باعتبارها هيئات إدارية مساعدة تابعة للدولة، وحثت الناس على اللجوء إليها للحصول على السلع الأساسية -الوقود والغذاء والدواء- لا سيما خلال الجائحة التي حصدت أرواح 16 ألف شخص في الخرطوم وحدها.

ونتيجة لذلك، أُرهقت لجان المقاومة. فبدلا من أن تكون المهمة هي شرح الدور الحقيقي لحمدوك، وطرح برنامج لتعويضه بنظام الرقابة العمالية، تم جر أكثر الثوار تفانيا إلى دور عمال إغاثة. وما كان يوما ما بمثابة النواة الأولى لدولة عمالية، غرق في الصراع اليومي لتلبية الاحتياجات الأساسية لمجتمع ينهار. فاختنقت طاقاتهم الثورية تدريجيا وهم يحاولون تحمل وطأة كارثة إنسانية متفاقمة.

كان ما يسمى بـ"التسوية" مع القوات المسلحة وقوات الدعم السريع استسلاما تاما في الواقع، إذ كانت السلطة كلها في أيدي الجنرالات. أصبح حمدوك مجرد واجهة عاجزة في قمة آلة دولة ضخمة لا يسيطر عليها. وفي لجنة الأزمات الاقتصادية، اضطر حمدوك، "دكتور الاقتصاد"، إلى التزام الصمت، بينما كان راعي الإبل حميدتي هو من يتخذ جميع القرارات.

لم يكن ذلك العجز نتاجا لشخصية حمدوك ولا لقوة الجيش، بل كان نابعا مباشرة من موقفه الطبقي. أدرك الليبراليون أن النضال الحازم لإزاحة الجيش وإقامة دولة ليبرالية ديمقراطية لن ينجح إلا بتعبئة العمال والشباب. لكن قوة الجماهير لن تتوقف عند حدود إرساء ديمقراطية شكلية.

بالنسبة للجماهير، ستكون الديمقراطية في المقام الأول وسيلة لتحسين أوضاعهم. لكن الليبراليين لن يستطيعوا إرضاء العمال وذلك تحديدا لأن السودان يرزح تحت وطأة أزمة رأسمالية لا مفر منها. وهكذا فإن الثورة، ما لم يتم منعها، لن تتوقف عند حدود الديمقراطية الليبرالية، بل ستنتقل، تحت ضغط الجماهير، إلى مهاجمة الملكية الخاصة والطبقة الرأسمالية نفسها، وهي هجمات لا يمكن صدها إلا بالجيش.

لذا فقد كان الخيار أمام الليبراليين هو التالي: إقامة نظام ديمقراطي، لكن سرعان ما سيقعون تحت سيطرة العمال؛ أو الاستمرار في السماح للجيش بالدوس عليهم، والسماح له بحكم المجتمع كما يشاء، ونهب المليارات.

إن ضعف الرأسماليين، وعجزهم عن تطوير المجتمع ولو قيد أنملة، إلى جانب القوة الهائلة للعمال، جعلهم أكثر استعدادا للبحث عن "رجل قوي" عسكري من أجل الخلاص.

انقلاب 2021

مرت سنتان على حكم حمدوك، دون أي حلول على الاطلاق. كان من المقرر وفقا للاتفاق الخياني ليوليوز 2019، إجراء الانتخابات في ربيع 2022. لكن الجيش لم يكن مستعدا للمخاطرة بأن تفرض الجماهير إرادتها عبر الانتخابات. في يوم الاثنين 25 أكتوبر 2021، طلب البرهان، قائد القوات المسلحة السودانية، من حمدوك الانضمام إليه كرئيس وزراء لحكومة أعيد تشكيلها، والتي ستلغي الانتخابات وترسخ حكما عسكريا ديكتاتوريا في السودان.

ولدهشة البرهان، رفض حمدوك. كان يعتقد أن البرهان لن يُكمل انقلابه دون دعم الولايات المتحدة. فخلال نهاية الأسبوع، أبلغ السفير الأمريكي البرهان أنه إذا مضى قدما في الانقلاب، ستقطع الولايات المتحدة 700 مليون دولار من المساعدات، وتحرم السودان من الحصول على قروض البنك العالمي، إلى جانب عدة عقوبات أخرى.

لكن ذلك لم يثن البرهان. وبدعم من السيسي في مصر، الذي كان قد فعل الشيء نفسه قبل ثماني سنوات لسحق الثورة

حمدوك مع ماكرون، 30 سبتمبر/أيلول
2019 (AP / Alamy ©)

المصرية، تحدى تهديدات الولايات المتحدة واستولى على السلطة.

اختطف البرهان حمدوك، ثم ظهر على التلفزيون الوطني ليعلن تعليق جميع الرحلات الجوية، وقطع الإنترنت، وإعلان حالة الطوارئ حتى موعد إجراء انتخابات جديدة في يوليوز 2023.

كان البرهان يريد تقديم ذلك كأمر واقع. لكن الطبقة العاملة كان لها رأي آخر.

مباشرة بعد إعلان الانقلاب، اشتعلت الثورة من جديد. مُنحت لجان المقاومة المحلية فرصة جديدة للحياة. دعا تجمع المهنيين والحزب الشيوعي إلى إضرابات عامة واسعة النطاق. واستجاب مليون شخص للدعوة عندما دعت النقابات العمالية إلى عصيان مدني جماهيري.

من مسيرة الملايين في الخرطوم، 30 نوفمبر/تشرين الثاني 2021، احتجاجًا على انقلاب 25 أكتوبر/تشرين الأول (© ضحى محمد)

أعلن البرهان أنه سيتم حل جميع النقابات العمالية عقابا لها على ذلك التحدي. وتم حشد قوات الدعم السريع مرة أخرى لبث الرعب بين الجماهير.

لكن الجماهير كانت مصممة على القتال. وردت بهتافات: "الثوار والشعب الحر سيواصلون المسيرة!"، "الثوار لا يخشون الرصاص!"، "الشعب أقوى!"، و"التراجع ليس خيارا!".

بعد خمسة أيام من إعلان الانقلاب، أضرب 4 ملايين عامل عازمين على التصدي للجنرالات. ورد النظام باعتقال الآلاف ممن خرجوا متحدين لوابل من الرصاص الحي.

وتحت ضغط الأحداث الهائل، اتخذ تجمع المهنيين الموقف الأكثر راديكالية حتى ذلك الحين. ودعا إلى الإطاحة الكاملة بالجيش؛ وتشكيل حكومة مدنية كاملة، تتألف فقط من القوى الثورية؛ وأن يتم حل القوات المسلحة وقوات الدعم السريع، ومحاكمة قادتها بتهم ارتكاب جرائم ضد الثورة.

لكن وحتى ذلك الحين بدا افتقارهم للوضوح السياسي جليا. فقد بقيت مسألة كيفية تحقيق ذلك دون انتفاضة عمالية، ودون تسليح، ودون قيام دولة جديدة تحل محل القديمة، دون إجابة. بل على العكس من ذلك هنأوا حمدوك على رفضه دعم الانقلاب، ومنحوه غطاء يساريا كقائد محتمل. وكانت لذلك الأمر عواقب وخيمة.

في 21 نوفمبر، بعد شهر من اختطافه، ظهر حمدوك مرتبكا ومشتت الذهن برفقة حميدتي والبرهان، معلنا عن توصلهم إلى اتفاق. وأنه سيقود حكومة تكنوقراطية جديدة، مع تأجيل الانتخابات حتى يونيو 2023، وأن المقاومة ستتوقف.

مباشرة بعد ذلك أعلن يمين قوى الحرية والتغيير دعمه للاتفاق. في حين أعلن اليسار رفضه، لكنه لم يقدم أي رؤية لكيفية تغيير المجتمع. واستمر في الدعوة إلى أكثر الطرق سلمية، ورفض تسليح العمال.

أعلنت لجان المقاومة بأحياء الخرطوم أنه: «من واجبنا مقاومة [الجنرالات] حتى ننتصر أو حتى يحكموا بلدا خاليا بعد أن يقتلونا جميعا».[11] لكن ومع غياب أي رؤية واضحة لكيفية الرد بفعالية، كان يتم اقتياد الجماهير كالأغنام إلى المذبحة.

فمع انعدام الرؤية لدى القيادة، تضاءلت نسبة الاستجابة للإضراب. فالناس لا يواجهون خطر الموت لمجرد حسن النية، بل يحتاجون إلى الإيمان بأن أفعالهم قادرة على تغيير التاريخ. بعد ثلاث سنوات من قيادة الطبقة الوسطى المسالمة تبدد ذلك الإيمان، ولم يكن هناك حزب ثوري يرشدهم إلى الحل.

في 3 يناير 2022، وبعد عودة الجماهير إلى منازلهم، استقال حمدوك رسميا. وتم منح القوات المسلحة السودانية وقوات الدعم السريع السيطرة الكاملة. وانتهت

جميع الدعوات والنضالات من أجل حكومة مدنية إلى ترسيخ حكم الديكتاتورية العسكرية. وأدت أوهام السلمية مباشرة إلى أعنف حرب أهلية شهدها السودان، لأن هؤلاء الطغاة بقوا في السلطة.

لقد تمت قيادة العمال نحو طريق مسدود. وبسبب غياب أي رؤية للحل، لم تؤد جهودهم سوى إلى المزيد من الإحباط. واصلت قوات الدعم السريع حملاتها الإرهابية، فهاجمت العمال بالغازات المسيل للدموع والهراوات والذخيرة الحية والمدافع المضادة للطائرات. وكان العمال الذين يشيعون قتلاهم في الجنازات أهدافا مشروعة، إذ كانت المركبات المدرعة تدهسهم جيئة وذهابا.

لم يكن حجم الإرهاب هو العنصر الحاسم في انقلاب أكتوبر، بل غياب قيادة حازمة ذات رؤية واضحة للمقاومة. وهذا ما دفع العمال في نهاية المطاف إلى الإنهاك.

انتصار الثورة المضادة

كان يناير 2022 ذروة الثورة المضادة. لم يُسحق العمال في السودان على يد الجنرالات، لكن قادتهم قادوهم مرارا إلى طريق مسدود. وبعد ثلاث سنوات من الشجاعة والتضحيات الجسام، كانت النتيجة انقلابا عسكريا آخر.

أدت ثلاث سنوات من الجهد إلى إرهاق الجماهير وإحباطها. تمت الدعوة إلى سلسلة من التحركات خلال أوائل ربيع 2022، لكن مشاركة الجماهير تراجعت تدريجيا مع تلاشي الأمل من قلوبهم. وذلك لعدم قدرة أحد على شرح الأحداث الجارية بوضوح، أو تقديم حل مقنع للمضي قدما.

نجحت القوات المسلحة السودانية وقوات الدعم السريع في قمع الليبراليين والثوار على حد سواء. ورسخوا حكم السيف. كان السؤال الوحيد هو منْ منَ الفصيلين سيستخدمه. وبعد سحق الطبقة العاملة، انقلب الجنرالات على بعضهم البعض، يتنافسون على من سيفوز بغنائم الشعب السوداني الملطخة بالدماء. كلما ازدادت هزيمة الجماهير، اشتدت حدة الصراعات الداخلية بين المنتصرين.

مد البرهان غصن زيتون مسموم لقوات الدعم السريع، حيث اقترح دمجهم في القوات المسلحة السودانية تحت قيادته. فرغم الخدمات التي قدمتها قوات الدعم السريع للثورة المضادة، استمرت الزمرة الحاكمة في الخرطوم تنظر إليهم على أنهم رعاة قبليون متخلفون.

لكن حميدتي لم يكن ينوي التراجع. فقد عزز نفوذه في دارفور، وأثرى نفسه من مناجم الذهب الشاسعة في الغرب. لقد أثبت جدارته باعتباره القائد الدموي للثورة المضادة، وسارع إلى استمالة داعمين دوليين، ولا سيما الإمارات العربية المتحدة، التي امتدت طموحاتها لتشمل القرن

الخرطوم، 13 يناير/كانون الثاني 2022 (© ضحى محمد)

لاجئون سودانيون في تشاد، 2023 (هنري ويلكنز / VOA)

الأفريقي. وبحلول يناير 2022، ارتقى حميدتي من راعٍ هامشي إلى أقوى رجل في السودان. ولم يكن ليسمح للبرهان بتهديد موقعه.

آنذاك بدأ الصراع على من سيكون "بونابرت السودان". ووضعت أسس الحرب الأهلية.

في 16 أبريل 2023، شعرت قوات الدعم السريع بما يكفي من الشجاعة للتحرك ضد القوات المسلحة السودانية. وباستخدام الطائرات المقاتلة والدبابات، انطلقت شرارة الحرب الأهلية السودانية الثالثة. وفي غضون أسبوعين، فر 800 ألف لاجئ من السودان مع تفشي المجاعة في البلاد. ماتت النساء الحوامل جوعا بسبب نقص الغذاء. وحلت أسوأ مجاعة عرفها العالم منذ 40 عاما، حيث واجه 24,6 مليون شخص "جوعا حادا"، وواجه مليونا شخص المجاعة أو خطرها.[12] وبحلول يناير 2025، قدر اتحاد أطباء السودان أن أكثر من 522 ألف طفل قد لقوا حتفهم بالفعل بسبب سوء التغذية.

تنافس الطرفان لأكثر من عامين على تصعيد الوحشية إلى مستويات جديدة. صار التعذيب والإخصاء وقطع الرؤوس والاستعباد أمرا شائعا. وتعرض أطفال رضع لا تتجاوز أعمارهم السنة الواحدة للاغتصاب. وتحول الاعتداء الجنسي إلى سلاح حرب.

رسخت قوات الدعم السريع سيطرتها في الغرب. وأعادت شن حملتها الإبادية في دارفور ضد شعب المساليت، مستغلة الانقسامات بين الرعاة العرب الرحل والرعاة الأفارقة السود. وفي سنة 2005، انتهجت قوات الدعم السريع سياسة اغتصاب جماعي ممنهجة للقضاء على السكان الأفارقة. والآن اتخذت مسارا أكثر مباشرة. فقد تقرر إعدام جميع الذكور الأفارقة السود، بغض النظر عن أعمارهم. النساء اللائي كن يهربن إلى تشاد مع أطفالهن الرضع، سقطن صريعات جراء ثقوب الرصاص في رؤوسهن.

في الماضي، كان صراع بهذا الحجم يُحسم في أروقة واشنطن بقدر ما يُحسم في ساحة المعركة. فالولايات المتحدة، في نهاية المطاف، هي التي توسطت في اتفاقية السلام الشامل سنة 2005، التي أنهت الحرب الأهلية السودانية الثانية، والتي قسمت البلاد في نهاية المطاف إلى قسمين. لكن التراجع النسبي للإمبريالية الأمريكية سمح لعدد من القوى الأصغر بفرض مصالحها في المنطقة، بغض النظر عن السياسة الخارجية الأمريكية. وهم في السودان يسعون للسيطرة على طرق التجارة في البحر الأحمر شرقا، والأراضي الخصبة على طول النيل، والسيطرة غربا على مناجم الذهب الذي يشهد ارتفاعا كبيرا في قيمته مع تراجع الدولار.

لقد تدخلت مجموعة واسعة من القوى: فقد دعمت السعودية باستمرار القوات المسلحة السودانية، بينما أصبحت الإمارات العربية المتحدة، التي هي قوة صاعدة ذات نزعة توسعية، الداعم الرئيسي لقوات الدعم السريع. وتبدو قائمة المتدخلين الأجانب لا تنتهي: فقد لعبت قطر ومصر وتركيا وإثيوبيا وإريتريا وتشاد أدوارها. وتهدد هذه التداعيات بدفع السلام الذي دام أربع سنوات في جنوب السودان إلى حرب أهلية أخرى.

ومما زاد الطين بلة تدخل روسيا في البداية إلى جانب قوات الدعم السريع لتأمين مناجم الذهب والالتفاف على العقوبات الغربية. ولمواجهة محاولة روسيا لكسر العقوبات، تدخل الجيش الأوكراني إلى جانب القوات المسلحة السودانية، مما أدى إلى مشاهد غريبة لمرتزقة روس يقاتلون القوات الخاصة الأوكرانية في شوارع الخرطوم.

لكن الآن انقلبت القوى الإمبريالية الروسية على حلفائها السابقين، وأصبحت الأولوية عندها هي الوصول إلى ميناء بورتسودان. ونتيجة لذلك سحبت دعمها لقوات الدعم السريع، وأصبحت القوات المسلحة السودانية حليفة جديدة لها، مما أدى إلى مشاهد أكثر غرابة لمرتزقة روس يعملون جنبا إلى جنب مع القوات الخاصة الأوكرانية.

التحليل الكامل للحرب الأهلية السودانية الثالثة يتجاوز نطاق هذه المقالة. لكن المؤكد هو أن الطبقة العاملة السودانية قد مُنيت بهزيمة كارثية. وسيستغرق الأمر سنوات -وربما

عقودا- وتطورات هائلة ليس فقط داخل السودان، بل على الصعيد الأممي أيضا، لكي تستعيد قوتها.

وفي غضون ذلك تستشري الهمجية، وهي تنتشر يوما بعد يوم إلى خارج حدود السودان.

الاشتراكية أم الهمجية؟

قد يدّعي دعاة السلمية والجبناء: "لو لم نناضل من أجل الحرية، لكنا تجنبنا هذه الأهوال". لكن الرأسمالية نفسها هي رعب بدون نهاية. لم تكن الأزمة في السودان نتيجة للثورة، بل كانت الأزمة العميقة التي يعاني منها المجتمع السوداني **هي التي أدت** إلى اندلاع الثورة.

لو أن العمال لم يخرجوا إلى الشوارع، هل كان ذلك ليوقف الانهيار الاقتصادي، في حين كان التضخم قد تجاوز 100% سنة 2018؟ هل كان ذلك ليمنع انقسام الطبقة السائدة، في حين أن الدكتاتور أنشأ جيشين متنافسين لترسيخ قبضته على السلطة؟ هل كان ليمنع القوى الإقليمية من التدخل، وهي نفسها التي تُؤجج الدمار في اليمن وتيغراي وجنوب السودان وجمهورية الكونغو الديمقراطية؟

كل تلك التطورات نابعة من الأزمة العالمية والبنيوية التي يواجهها النظام الرأسمالي منذ انهيار عام 2008.

أدت تلك الأزمة إلى حقبة تاريخية من الاضطرابات، حقبة تميزت بالجمود طويل الأمد بين طبقة رأسمالية عاجزة عن تطوير قوى الإنتاج، وطبقة عاملة تعرضت للخيانة مرارا من طرف قيادتها. يتسم العالم اليوم باضطراب عضوي، يتسم بتقلبات حادة وانفجارات مفاجئة.

كان السودان أقرب من أي حركة حديثة إلى كسر ذلك الجمود، وإقامة حكومة عمالية. لم يكن بوسع الطبقة العاملة السودانية أن تقدم أكثر مما قدمته من شجاعة وتصميم وصمود. ما كان ينقص الحركة هو قيادة ثورية حقيقية. فاستسلمت الحركة مرار لأوهام البرجوازية والبرجوازية الصغيرة.

لم يكن ذلك الفشل ناتجا عن قصور شخصي لدى القادة، بل كان نتيجة حتمية لغياب حزب ثوري يبنى **قبل** اندلاع الأحداث، حزب مُحصن ضد ضغوط المجتمع البرجوازي، بكوادر مدربة منغرسة في جميع أنحاء البلاد، قادرة على توحيد الجماهير العاملة حول برنامج ثوري متماسك. وبدون مثل هذا الحزب، سيكون محكوما حتى على أشد الانتفاضات بسالة أن تخضع لسلطة الطبقة السائدة.

لقد فتح فشل الثورة السودانية أبوابا واسعة لأهوال لا تصدق. لكن السودان ليس استثناء، بل هو بمثابة تحذير. شعار "الاشتراكية أو الهمجية" ليس مجرد فكرة نظرية بعيدة، بل كان الخيار الحقيقي والواقعي الذي واجه السودان سنة 2019. وفي ظل غياب القيادة الثورية كانت النتيجة هي الهمجية. وسوف يُطرح هذا السؤال مرارا وتكرارا.

خُلْد الثورة العجوز يحفر عميقا، ليس فقط في أفريقيا والشرق الأوسط، بل وشمالا نحو معاقل الإمبريالية. والانفجارات التي هزت الخرطوم عام 2019 سوف تُزلزل مراكز الرأسمالية العالمية.

والسؤال الوحيد هو: هل ستكون قوى الثورة مستعدة، أم ستسمح للتاريخ بتكرار نفسه ؟

تُقدِّم الثورة السودانية دروسا قيمة. وسيكون من غير المقبول أن يتبدد إرثها هباء. سوف تندلع المواجهة بين الثورة والثورة المضادة مرارا وتكرارا، وعلى نطاق أوسع من أي وقت مضى. ولا شك في هوية من سينتصر في النهاية، لكن **شريطة** أن نستعد مسبقا.

المراجع متاحة على الانترنيت عبر:
marxist.com/idom-52-references

أو يمكن مسح رمز الاستجابة السريعة (QR code)

انضم إلى الأممية الشيوعية الثورية!

marxy.com/?p=4838

متاريس في كومونة باريس، 18 مارس/آذار 1871

دروس من كومونة باريس

كانت كومونة باريس عام 1871 أول دولة عمالية في التاريخ. فعلى مدى ستة أسابيع تقريبا، من 18 مارس إلى 28 ماي، حكم عمال باريس المدينة ديمقراطيا، بينما كانوا يقاومون ببسالة هجمة النظام القديم المتمركز في فرساي.

وقد أشاد ماركس بعمال باريس لـ"اقتحامهم السماء"، وما يزال تحليله للكومونة في كتابه "الحرب الأهلية في فرنسا" مرجعا أساسيا. إلا أن الكومونة وبالرغم من إنجازاتها الملهمة، فقد كانت لها أيضا بعض النواقص. ولعل أبرز تلك النواقص هي قيادتها التي وصلت إلى السلطة صدفة تقريبا، وتصرفت بطريقة مرتبكة ومترددة طوال فترة حكمها.

يُبين ليون تروتسكي في هذه المقالة، "دروس من كومونة باريس"، التي نشرت عام 1921، أوجه قصور قيادة كومونة باريس، ويشرح أهمية وجود حزب ثوري ممركز لأجل انتصار الثورة الاشتراكية.

في كل مرة ندرس تاريخ الكومونة نراه من منظور جديد، وذلك بفضل الخبرة المكتسبة من النضالات الثورية اللاحقة، ولا سيما من الثورات الأخيرة، ليس فقط الثورة الروسية، بل أيضا الثورتين الألمانية والمجرية. كانت الحرب الفرنسية الألمانية انفجارا دمويا، ونذيرا بمذبحة عالمية هائلة، بينما كانت كومونة باريس مبشرا خاطفا بثورة بروليتارية عالمية.

تُظهر لنا الكومونة بطولة الجماهير العاملة، وقدرتها على التوحد في كتلة واحدة، واستعدادها للتضحية بنفسها من أجل المستقبل. لكنها في الوقت نفسه تُظهر لنا عجز الجماهير عن اختيار مسارها، وترددها في قيادة الحركة، وميلها للتوقف بعد النجاحات الأولى، مما يسمح للعدو باستعادة أنفاسه، وإعادة ترسيخ مواقعه.

جاءت الكومونة متأخرة جدا. كانت لديها كل الإمكانيات للاستيلاء على السلطة

في 4 شتنبر 1870،[1] وكان ذلك سيُمكّن بروليتاريا باريس بضربة واحدة من قيادة عمال البلاد في نضالهم ضد كل قوى الماضي، وضد كل من بسمارك وتيير.[2] لكن السلطة سقطت في أيدي النواب الديمقراطيين، نواب باريس.

1. انتفاضة عمال باريس وإعلان الجمهورية، إثر هزم وأسر الإمبراطور نابليون الثالث في معركة سيدان في 02 سبتمبر/أيلول.

2. رئيس الحكومة الرجعية المتمركزة في فرساي، التي عارضت وسحقت في النهاية كومونة باريس.

قادة برجوازيون صغار

لم يكن لدى بروليتاريا باريس حزب ولا قادة تربطها بهم روابط وثيقة من خلال نضالات سابقة. والوطنيون البرجوازيون الصغار، الذين اعتبروا أنفسهم اشتراكيين وطلبوا دعم العمال، لم تكن لديهم حقا أي ثقة بأنفسهم. لقد زعزعوا ثقة البروليتاريا في نفسها، وكانوا يبحثون باستمرار عن محامين مشهورين وصحفيين ونواب، لا يملكون سوى بضع العبارات الثورية المبهمة، ليعهدوا إليهم بقيادة الحركة. [...]

إن السبب الذي دفع جول فافر، وبيكار، وغامبيه-باج، ورفاقهم إلى الاستيلاء على السلطة في باريس في الرابع من شتنبر هو نفسه الذي سمح لبول-بونكور، وآلان فارين، ورينوديل، وغيرهم كثير، بأن يكونوا لفترة من الزمن سادة حزب البروليتاريا. إن رينوديل وبونكور، بل وحتى لونغيه وبريسمان، هم، بحكم تعاطفهم وعاداتهم الفكرية وسلوكهم، أقرب بكثير إلى جول فافر وجول فيري منهم إلى البروليتاريا الثورية. وليس خطابهم الاشتراكي إلا قناعا تاريخيا يسمح لهم بفرض أنفسهم على الجماهير.

وكما أن فافر، وسيمون، وبيكار، وغيرهم استخدموا وبالغوا في استخدام الخطاب الديمقراطي الليبرالي، فإن أبناءهم وأحفادهم مضطرون إلى اللجوء إلى الخطاب الاشتراكي. لكن الأبناء والأحفاد ظلوا جديرين بآبائهم ويواصلون عملهم. وعندما سيحين وقت البتّ ليس في مسألة تشكيل طغمة وزارية، بل في المسألة الأهم بكثير وهي: معرفة الطبقة التي يجب أن تتولى السلطة في فرنسا، سيجد رينوديل وفارين ولونغيه وأمثالهم أنفسهم في معسكر ميليران -المتعاون مع غاليفيه، جزار الكومونة... عندما يجد ثوريو الصالونات والبرلمان الثرثارون أنفسهم، في الواقع، وجها لوجه مع الثورة، فإنهم لا يتعرفون عليها أبدا.

الحزب العمالي -الحزب العمالي الحقيقي- ليس آلة للمناورات البرلمانية، بل هو الخبرة المتراكمة والمنظمة للبروليتاريا. فقط بمساعدة الحزب الذي يستند إلى تاريخه الماضي برمته، والذي يتنبأ نظريا بمسارات التطور، بجميع مراحله، والذي يستخلص منه الصيغة الضرورية للعمل، تتحرر البروليتاريا من الحاجة إلى إعادة كتابة تاريخها باستمرار: ترددها، وعجزها عن اتخاذ القرارات، وأخطائها.

لم يكن لدى بروليتاريا باريس مثل ذلك الحزب. الاشتراكيون البرجوازيون، الذين غصّت بهم الكومونة، رفعوا أعينهم إلى السماء، منتظرين معجزة أو كلمة إلهية، مترددين، وخلال ذلك الوقت تاهت الجماهير وفقدت بوصلتها بسبب تردد البعض وأوهام البعض الآخر.

وكانت النتيجة أن الثورة اندلعت في قلب معسكرهم، لكن بعد فوات الأوان، إذ كانت باريس قد حوصرت بالفعل. انقضت ستة أشهر قبل أن تستعيد البروليتاريا في ذاكرتها دروس الثورات السابقة، ومعارك الماضي، وخيانات الديمقراطيين المتكررة، ثم استولت على السلطة.

لقد تبين أن تلك الأشهر الستة كانت خسارة لا يمكن تداركها. فلو وُجد حزب ممركز للعمل الثوري على رأس بروليتاريا فرنسا في شتنبر 1870، لكان تاريخ فرنسا بأسره -ومعه تاريخ الإنسانية جمعاء- قد اتخذ مسارا آخر.

إن وقوع السلطة في يد بروليتاريا باريس في 18 مارس لم يكن نتيجة عمل مقصود ومخطط له، بل لأن أعداءها كانوا قد انسحبوا من باريس.

كان هؤلاء الأعداء يخسرون مواقعهم باستمرار، كان العمال يحتقرونهم ويكرهونهم، ولم تعد البرجوازية الصغيرة تثق فيهم، بينما صارت البرجوازية الكبيرة تخشى من عجزهم عن الدفاع عنها. كان الجنود معادين للضباط. وفرّت الحكومة من باريس لتركيز قواتها في مكان آخر. وحينها فقط صارت الطبقة العاملة هي المتحكمة في الوضع.

لكنها لم تدرك هذه الحقيقة إلا في اليوم التالي. فقد داهمتها الثورة على حين غرة.

الخمول

كان ذلك النجاح الأول سببا جديدا للخمول. لقد فر العدو إلى فرساي. ألم يكن ذلك نصرا؟

في تلك اللحظة، كان من الممكن سحق العصابة الحكومية دون إراقة قطرة دم تقريبا. في باريس، كان من الممكن أسر جميع الوزراء، وعلى رأسهم تيير. لم يكن أحد ليرفع يده للدفاع عنهم. لكن ذلك لم يحدث. لم يكن هناك تنظيم حزبي ممركز، يمتلك رؤية شاملة للأمور وأجهزة خاصة لتنفيذ قراراته.

لم ترغب فلول المشاة في الانسحاب إلى فرساي. كان الخيط الذي يربط الضباط والجنود واهيا للغاية. فلو أنه كان هناك مركز قيادة حزبي في باريس، لكان قد ضم إلى الجيوش المنسحبة -ما دام الانسحاب ممكنا- بضع مئات أو حتى بضع عشرات من العمال المخلصين، وأعطاهم التعليمات التالية: تأجيج سخط الجنود على الضباط، واستغلال أول فرصة نفسية مواتية لتحرير الجنود من ضباطهم وإعادتهم إلى باريس ليتحدوا مع الشعب.

كان من الممكن تحقيق ذلك بسهولة، وفقا لاعترافات مؤيدي تيير أنفسهم. لم يفكر أحد في الأمر، ولم يكن هناك أصلا من يفكر فيه. في خضم الأحداث الجسام، لا يمكن اتخاذ مثل تلك القرارات إلا من قبل حزب ثوري يستشرف الثورة، ويستعد

لها، ولا يفقد صوابه، حزب اعتاد على رؤية شاملة ولا يخشى الفعل.

وذلك الحزب الذي لا يخشى الفعل هو ما افتقدته الطبقة العاملة الفرنسية.

اللجنة المركزية واحترام "الشرعية"

اللجنة المركزية للحرس الوطني هي في الواقع مجلس لممثلي العمال المسلحين والبرجوازية الصغيرة. هذا المجلس، المنتخب مباشرة من قبل الجماهير التي سلكت طريق الثورة، يمثل جهازا ممتازا للفعل. ولكن في الوقت نفسه، وبسبب ارتباطه المباشر والأساسي بالجماهير التي تعيش في ظل الثورة، فإنه لا يعكس فقط جميع جوانب القوة، بل يعكس أيضا جوانب الضعف لدى الجماهير، وفي البداية يعكس جوانب الضعف أكثر من جوانب القوة: فهو يُظهر روح التردد، والانتظار، والميل إلى الخمول بعد النجاحات الأولى.

كانت اللجنة المركزية للحرس الوطني تحتاج إلى قيادة. كان من الضروري وجود منظمة تجسد التجربة السياسية للبروليتاريا، وتكون حاضرة باستمرار، ليس فقط في اللجنة المركزية، بل كذلك في الفيالق والكتائب، وفي أعمق قطاعات البروليتاريا الفرنسية.

كان بإمكان الحزب أن يكون على اتصال دائم بالجماهير، من خلال مجالس النواب -التي كانت في هذه الحالة أجهزة تابعة للحرس الوطني- وأن يكون على دراية بحالتها الذهنية؛ وكان بإمكان قيادته المركزية أن تطرح يوميا، من خلال كوادر الحزب، شعارا يتغلغل في الجماهير، ويوحد فكرها وإرادتها.

وما كادت الحكومة أن تتراجع إلى فرساي حتى سارع الحرس الوطني إلى التخلي عن مسؤوليته، في اللحظة التي كانت فيها تلك المسؤولية جسيمة. تخيلت اللجنة المركزية انتخابات "شرعية" للكومونة. ودخلت في مفاوضات مع رؤساء بلديات باريس لتغطي نفسها بـ"الشرعية" من اليمين.

لو تم إعداد هجوم عنيف على فرساي في الوقت نفسه، لكانت المفاوضات مع رؤساء البلديات حيلة مبررة من وجهة النظر العسكرية ومتوافقة مع الهدف. لكن تلك المفاوضات لم تُجرَ، في الواقع، إلا لتجنب الصراع بمعجزة ما. كان الراديكاليون البرجوازيون الصغار والاشتراكيون المثاليون، الذين يحترمون "الشرعية"، وهؤلاء الذين يمثلون جزءا من الدولة "الشرعية" -النواب، رؤساء البلديات، إلخ- يأملون في قرارة أنفسهم أن يقف تيير باحترام أمام باريس الثورية حالما تغطي الأخيرة نفسها بـ"الكومونة الشرعية".

كان الخمول والتردد مدعومان، في هذه الحالة، بمبدأ الفدرالية والاستقلال المقدس. فباريس، كما ترى، ليست سوى كومونة واحدة من بين كومونات عديدة. وباريس لا تريد فرض أي شيء على أحد؛ إنها لا تناضل من أجل الديكتاتورية، إلا إذا كانت من أجل "ديكتاتورية القدوة".

"الحكم الذاتي البلدي"

باختصار، لم يكن الأمر سوى محاولة لاستبدال الثورة البروليتارية، التي كانت تتطور، بإصلاح برجوازي صغير: حكم ذاتي بلدي. تمثلت المهمة الثورية الحقيقية في ترسيخ سلطة البروليتاريا في جميع أنحاء البلاد. وكان على باريس أن تكون قاعدتها ودعمها ومعقلها. ولتحقيق ذلك الهدف، كان من الضروري إلحاق الهزيمة بفرساي دون إضاعة الوقت وإرسال المحرضين والمنظمين والقوات المسلحة إلى جميع أنحاء فرنسا. كان من الضروري التواصل مع المتعاطفين، وتصليب نفسية المترددين، وسحق معارضة العدو.

لكن وبدلا من هذه السياسة الهجومية المقدامة، التي كانت الشيء الوحيد القادر على إنقاذ الموقف، حاول قادة باريس عزل أنفسهم في حكمهم الذاتي البلدي: لن يهاجموا الآخرين ما لم يهاجمهم الآخرون؛ فلكل مدينة حقها المقدس في الحكم الذاتي. هذه الثرثرة المثالية -التي لا تختلف عن الثرثرة اللاسلطوية السطحية- أخفت في الواقع جبنا في مواجهة العمل الثوري الذي كان ينبغي أن يستمر بلا انقطاع حتى النهاية، وإلا لما كان ينبغي البدء به.

إن العداء للتنظيم الرأسمالي -وهو إرث للنزعة المحلية البرجوازية الصغيرة والحكم الذاتي- هو بلا شك نقطة ضعف شريحة معينة من البروليتاريا الفرنسية. فالحكم الذاتي للأحياء والدوائر والكتائب والمدن هو الضمانة القصوى للنشاط الحقيقي والاستقلال الفردي لبعض الثوريين. لكنه خطأ فادح كلف البروليتاريا الفرنسية ثمنا باهظا.

وتحت ستار "النضال ضد المركزية الاستبدادية" و"الانضباط الخانق"، يدور صراع من أجل الحفاظ على الذات لمختلف الجماعات والفئات الفرعية من الطبقة العاملة، ومن أجل مصالحها الضيقة، مع قادة دوائرها الضيقة وزعمائها المحليين.

بإمكان الطبقة العاملة بأكملها، مع الحفاظ على أصالتها الثقافية وخصوصياتها السياسية، أن تعمل بمنهجية وحزم، دون أن تبقى منقادة للأحداث، وأن توجه ضرباتها القاضية في كل مرة ضد الفئات الضعيفة من أعدائها، شريطة أن يكون على رأسها، فوق الأحياء والمناطق والجماعات، جهاز مركزي متماسك بانضباط حديدي. [...]

إن النزعة نحو الخصوصية، مهما كان شكلها، هي إرث من الماضي. وكلما أسرعت الشيوعية الاشتراكية الفرنسية والشيوعية النقابية في التحرر منها، كان ذلك أفضل للثورة البروليتارية.

دور الحزب

لا يُشعِل الحزب الثورة متى شاء، ولا يختار لحظة الاستيلاء على السلطة كيفما يشاء، بل يتدخل بفعالية في الأحداث، ويتغلغل في كل لحظة في الحالة الذهنية للجماهير الثورية، ويُقيّم قوة مقاومة العدو، ومن ثم يُحدد اللحظة الأنسب للعمل الحاسم. وهذا هو الجانب الأصعب من مهمته.

لا يملك الحزب قرارا صالحا لكل الحالات. فالمطلوب هو نظرية صحيحة، وتواصل وثيق مع الجماهير، وفهم عميق للوضع، ورؤية ثورية، وعزيمة راسخة. وكلما توغل الحزب الثوري في جميع

مجـالات النضـال البروليتـاري، وتوحـد أكـثر بوحـدة الهـدف والانضبـاط، كلـما كان أسرع وأحسـن في إنجـاز مهمتـه.

تكمـن الصعوبـة في وجـود هـذا التنظيـم الحـزبي الممركـز، المتماسـك داخليـا بانضبـاط حديـدي، والمرتبـط ارتباطـا وثيقـا بحركـة الجماهـير، في فـترات مدهـا وجزرهـا. لا يمكـن تحقيـق الاسـتيلاء عـلى السـلطة إلا بـشرط وجـود ضغـط ثـوري قـوي مـن طـرف الجماهـير الكادحـة. لكـن عنـصر الإعـداد المسـبق أمـر لا غنـى عنـه إطلاقـا في هـذا العمـل.

كلـما ازداد فهـم الحـزب للظـروف واللحظـة، كلـما كانـت أسـس المقاومـة مهيـأة بشـكل أفضـل، وكلـما تـم توزيـع القـوى والأدوار بشـكل أفضـل، كلـما كان النجـاح أكـثر يقينـا وقـل عـدد الضحايـا. إن الربـط بـين عمـل مُعـدّ بعنايـة وبـين الحركـة الجماهيريـة هـو المهمـة السياسـية الاسـتراتيجية للاسـتيلاء عـلى السـلطة.

كيف انتصرت الثورة الروسية؟

إن مقارنـة 18 مـارس 1871 بـ 7 نوفمـبر 1917 تُعـد بالغـة الأهميـة مـن هـذا المنظـور. ففـي باريـس كان هنـاك غيـاب تـام للمبـادرة مـن جانـب الدوائـر القياديـة الثوريـة. كانـت البروليتاريـا، المسـلحة مـن قِبـل الحكومـة البرجوازيـة، هـي في الواقـع سـيدة المدينـة، وتملـك جميـع وسـائل القـوة الماديـة -المدافـع والبنـادق- تحـت تصرفهـا، لكنهـا لم تكـن واعيـة بذلـك. حاولـت البرجوازيـة انتـزاع السـلاح مـن يـد العمـلاق: أرادت سرقـة مدافـع البروليتاريـا. لكـن المحاولـة بـاءت بالفشـل. ففـرت الحكومـة مذعـورة مـن باريـس إلى فرسـاي. صـار الميـدان خاليـا. لكـن البروليتاريـا لم تـدرك أنهـا سـيدة باريـس إلا في اليـوم التـالي. أمـا "القـادة" فقـد كانـوا يتابعـون الأحـداث، ويسـجلونها بعـد وقوعهـا، ويبذلـون قصـارى جهدهـم لإخـماد جـذوة الثـورة.

أمـا في بتروغـراد فقـد اتخـذت الأحـداث منحـى مختلفـا. إذ أن الحـزب تحـرك بثبـات وعـزم نحـو الاسـتيلاء عـلى السـلطة، نـاشرا مناضليـه في كل مـكان، ومعـززا مواقعهـم، وموسـعا كل فجـوة بـين العـمال والجنـود مـن جهـة، وبـين الحكومـة مـن جهـة أخـرى. [...]

كانـت المظاهـرة المسـلحة في أيـام يوليـوز اسـتطلاعا واسـع النطـاق أجـراه الحـزب لقيـاس مـدى قـوة التواصـل بـين الجماهـير وقيـاس قـوة مقاومـة العـدو. تحـول الاسـتطلاع إلى صراع عـلى المواقـع المتقدمـة. لقـد تـم دفعنـا إلى التراجـع، لكـن في الوقـت نفسـه أسـس ذلـك العمـل صلـة بـين الحـزب وبـين أعـماق الجماهـير. شـهدت أشـهر غشـت وشـتنبر وأكتوبـر مـدا ثوريـا قويـا. وقـد اسـتفاد الحـزب مـن ذلـك، وعـزز بشـكل كبـير نقـاط دعمـه في أوسـاط الطبقـة العاملـة والجنـود.

ولاحقـا تحقـق التناغـم بـين الاسـتعدادات السريـة وبـين العمـل الجماهـيري بشـكل شـبه تلقـائي. تـم تحديـد موعـد المؤتمـر الثـاني للسـوفييتات في نوفمـبر. كان الهـدف مـن كل تحركاتنـا السـابقة هـو اسـتيلاء المؤتمـر عـلى السـلطة. وهكـذا فقـد تـم تحديـد موعـد الحسـم مسـبقا في 7 نوفمـبر. كان هـذا الأمـر معروفـا جيـدا للعـدو. ولم يكـن بوسـع كيرينسـكي ومستشـاريه إلا بـذل الجهـود لترسـيخ وجودهـم، ولـو بشـكل محـدود، في بتروغـراد اسـتعدادا للحظـة الحاسـمة. كـما كانـوا بحاجـة إلى إخـلاء العاصمـة مـن أكـثر فصائـل الجنـود ثوريـة.

نحـن، مـن جانبنـا، اسـتفدنا مـن محاولـة كيرينسـكي هـذه، وجعلناهـا دافعـا لـصراع

إعدام الكومونيون في مقبرة بير لاشيز، 28 مايو/أيار 1871، رسم بقلم ألفريد دارجو

جديـد ذي أهميـة حاسـمة. اتهمنـا حكومـة كيرينسـكي علنـا -وقـد تأكـد اتهامنـا لاحقـا في وثيقـة رسـمية- بالتخطيـط لسـحب ثلـث حاميـة بتروغـراد ليـس لأسـباب عسـكرية، بـل لأغـراض الحسـابات المعاديـة للثـورة. وقـد وطـد ذلـك الـصراع علاقتنـا بالحاميـة بشـكل أوثـق، ووضـع أمامهـا مهمـة محـددة بوضـوح، وهـي دعـم المؤتمـر السـوفياتي المقـرر عقـده في 7 نوفمـبر. ولأن الحكومـة أصرت -وإن كان ذلـك بشـكل ضعيـف- عـلى سـحب الحاميـة، فقـد أنشـأنا في سـوفييت بتروغـراد، الـذي كان تحـت سـيطرتنا، لجنـة حـرب ثوريـة، بذريعـة التحقـق مـن المـبررات العسـكرية للخطـة الحكوميـة.

وهكـذا صـار لدينـا جهـاز عسـكري بحـت، عـلى رأس حاميـة بتروغـراد، والـذي كان في الواقـع جهـازا قانونيـا للانتفاضـة المسـلحة. وقمنـا في الوقـت نفسـه بتعيـين مفوضـين (شـيوعيين) في جميـع الوحـدات العسـكرية، وفي المخـازن العسـكرية، ومـا إلى ذلـك. أنجـزت المنظمـة العسـكرية السريـة مهامـا فنيـة محـددة، وزودت لجنـة الحـرب الثوريـة بمقاتلـين جديريـن بالثقـة تمامـا للقيـام بمهـام عسـكرية هامـة.

العمـل الأسـاسي المتعلـق بالإعـداد والتنفيـذ والانتفاضـة المسـلحة جـرى علنـا، وبشـكل منهجـي وطبيعـي لدرجـة أن

البرجوازية، بقيادة كيرينسكي، لم تكن تدرك بوضوح ما يجري أمام أعينها. (في باريس، لم تدرك البروليتاريا إلا في اليوم التالي أنها حققت نصرا حقيقيا -نصرا لم تسع إليه بشكل واع- وأنها باتت تسيطر على الوضع. أما في بتروغراد فقد كان الحال على النقيض من ذلك. إذ استولى حزبنا، مستندا إلى العمال والحامية، على السلطة بالفعل، وقضت البرجوازية ليلة هادئة نسبيا، ولم تعلم إلا في صباح اليوم التالي أن زمام الأمور في البلاد بات في يد حفاري قبرها) [...]

مسائل الاستراتيجية

كانت هناك اختلافات عديدة في الآراء داخل حزبنا فيما يتعلق بالاستراتيجية.

أعلن جزء من اللجنة المركزية، كما هو معلوم، معارضته للاستيلاء على السلطة، معتقدا أن اللحظة لم تحن بعد، وأن بتروغراد معزولة عن بقية البلاد، وأن البروليتاريا معزولة عن الفلاحين، وما إلى ذلك.

بينما اعتقد رفاق آخرون أننا لا نولي أهمية كافية لعناصر المؤامرة العسكرية. طالب أحد أعضاء اللجنة المركزية في أكتوبر بتطويق مسرح ألسكندرين حيث كان المؤتمر الديمقراطي منعقدا، وإعلان ديكتاتورية اللجنة المركزية للحزب. وقال إنه: «بتركيزنا على تحريضنا وعملنا العسكري التحضيري للحظة انعقاد المؤتمر الثاني، نحن نكشف خطتنا للعدو، ونمنحه فرصة الاستعداد، بل وحتى توجيه ضربة استباقية لنا».

لكن لا شك أن محاولة التآمر العسكري ومحاصرة مسرح إلسكندرين كانت ستكون غريبة تماما عن مجريات الأحداث، وستثير قلق الجماهير. وحتى في سوفييت بتروغراد، حيث كان فصيلنا مهيمنا، كانت تلك المحاولة، التي تسبق التطور المنطقي للصراع، ستثير فوضى عارمة في تلك اللحظة، لا سيما بين أفراد الحامية الذين كانوا مترددين وغير موثوقين، وخاصة فيالق الفرسان. كان من الأسهل بكثير على كيرينسكي إخماد مؤامرة غير متوقعة من الجماهير بدلا من أن يهاجم الحامية التي كانت تتحصن أكثر فأكثر في مواقعها: دفاعا عن حصانتها باسم مؤتمر السوفييتات القادم.

لذلك رفضت أغلبية اللجنة المركزية خطة محاصرة المؤتمر الديمقراطي، وكان ذلك قرارا صائبا. كان التوقيت موفقا للغاية: فقد انتصرت الانتفاضة المسلحة، دون سفك دماء تقريبا، في الموعد المحدد مسبقا وبشكل علني، لانعقاد المؤتمر السوفياتي الثاني.

إلا أن هذه الاستراتيجية لا يمكن أن تصبح قاعدة عامة، فهي تتطلب ظروفا خاصة. لم يعد أحد يؤمن بالحرب مع الألمان، ولم يكن الجنود الأقل ثورية يرغبون في مغادرة بتروغراد نحو الجبهة. وحتى لو كانت الحامية ككل تقف إلى جانب العمال لهذا السبب وحده، فقد ازدادت قوة موقفها مع انكشاف مكائد كيرينسكي.

لكن ذلك المزاج الذي كان سائدا في حامية بتروغراد كان له سبب أعمق يتعلق بوضع طبقة الفلاحين وتطور الحرب الإمبريالية. فلو حدث انقسام في صفوف الحامية، ولو تمكن كيرينسكي من الحصول على الدعم من بعض الفيالق، لفشلت خطتنا. كانت عناصر المؤامرة العسكرية البحتة (التآمر وسرعة التنفيذ) هي التي سادت. وكان من الضروري، بالطبع، اختيار توقيت آخر للانتفاضة.

كانت لدى الكومونة أيضا إمكانية كاملة لكسب حتى كتائب الفلاحين، إذ أن هؤلاء كانوا قد فقدوا ثقتهم واحترامهم للسلطة والقيادة. إلا أنها لم تتخذ أي إجراء لتحقيق ذلك الهدف. لا يكمن الخلل هنا في علاقات الفلاحين والطبقة العاملة، بل في الاستراتيجية الثورية.

كيف سيكون الوضع في هذا الصدد في البلدان الأوروبية في عصرنا الحالي؟ ليس من السهل التنبؤ بأي شيء في هذا الشأن. ومع ذلك فإنه مع تطور الأحداث ببطء، وسعي الحكومات البرجوازية جاهدة لاستغلال تجارب الماضي، من المتوقع أن تحتاج البروليتاريا، لكي تكسب تعاطف الجنود، إلى التغلب على مقاومة كبيرة ومنظمة جيدا في لحظة معينة. عندها سيكون من الضروري شن هجوم ماهر وفي الوقت المناسب من جانب الثورة. وواجب الحزب هو الاستعداد لذلك. ولهذا السبب تحديدا يجب عليه الحفاظ على طابعه بكونه منظمة ممركزة وتطويره، منظمة تقود علنا الحركة الثورية للجماهير، وتكون في الوقت نفسه جهازا سريا للانتفاضة المسلحة.

الانتخاب والتعيينات

كانت مسألة انتخاب القيادة أحد أسباب الصراع بين الحرس الوطني وبين تيير. رفضت باريس قبول القيادة التي عيّنها تيير. وقد صاغ فارلين، لاحقا، مطلبا يقضي بانتخاب قيادة الحرس الوطني، من أعلى مستوياتها إلى أدناها، من قبل أفراد الحرس الوطني أنفسهم. ومن هنا استمدت اللجنة المركزية للحرس الوطني قاعدة دعمها.

يجب النظر إلى هذه المسألة من جانبين: سياسي وعسكري، واللذان هما مترابطان لكن يجب التمييز بينهما. تمثلت المهمة السياسية في تطهير الحرس الوطني من القيادة المعادية للثورة. وكان الانتخاب الكامل هو الوسيلة الوحيدة لتحقيق ذلك، إذ كانت أغلبية أفراد الحرس الوطني تتألف من العمال والبرجوازية الصغيرة الثورية. وبالإضافة إلى ذلك لو تم تطبيق شعار "انتخاب القيادة" على المشاة أيضا، لكان تيير قد حُرم بضربة واحدة من سلاحه الأساسي، ألا وهو الضباط المعادون للثورة.

ولتحقيق تلك الخطة كان لا بد من وجود تنظيم حزبي يتواجد أعضاؤه في جميع الوحدات العسكرية. وباختصار فإن مهمة "انتخاب القيادة" في هذه الحالة لم تكن هي توفير قادة أكفاء للكتائب، بل تحريرها من القادة الموالين للبرجوازية. لقد مثل "انتخاب القيادة" أداة لتقسيم الجيش إلى قسمين على أسس طبقية. وهكذا جرت الأمور في عهد كيرينسكي، ولا سيما عشية ثورة أكتوبر.

لكن تحرير الجيش من جهاز القيادة القديم يؤدي حتما إضعاف التماسك التنظيمي وتقليص القدرة القتالية. وكقاعدة عامة، تكون القيادة المنتخبة ضعيفة نسبيا من الناحية الفنية العسكرية وفيما يتعلق بالحفاظ على النظام والانضباط. وهكذا فإن اللحظة التي يتحرر فيها الجيش من القيادة القديمة المعادية للثورة التي كانت تقمعه، يبرز التساؤل حول منحه قيادة ثورية قادرة على القيام بمهامها. ولا يمكن بأي حال من الأحوال حل هذه المسألة بمجرد إجراء انتخابات بسيطة.

قبل أن تكتسب الجماهير الواسعة من الجنود خبرة اختيار القادة وانتقاءهم على النحو الأمثل، سوف تُهزم الثورة على يد عدو يسترشد في اختيار قادته بخبرة قرون. لذا فإنه يجب استكمال الأساليب الديمقراطية (الانتخاب البسيط) واستبدالها إلى حد ما بإجراءات الاختيار من فوق.

يجب على الثورة أن تُنشئ جهازا مؤلفا من منظمين ذوي خبرة وكفاءة، يمكن الوثوق بهم ثقة مطلقة، ومنحهم صلاحيات كاملة لاختيار القادة وتعيينهم وتدريبهم. وإذا كانت النزعة الفردانية والاستقلالية الديمقراطية تشكلان خطرا كبيرا على الثورة البروليتارية عموما، فإنهما أشد خطورة بعشر مرات على الجيش. وقد رأينا ذلك في المثال المأساوي للكومونة.

استمدت اللجنة المركزية للحرس الوطني سلطتها من الانتخاب الديمقراطي. وفي اللحظة التي احتاجت فيها اللجنة المركزية إلى تعزيز مبادرتها الهجومية إلى أقصى حد، وهي محرومة من قيادة حزب بروليتاري، فقدت صوابها، وسارعت إلى نقل صلاحياتها إلى ممثلي الكومونة التي كانت تحتاج قاعدة ديمقراطية أوسع. وقد كان التلاعب بالانتخابات في تلك الفترة خطأ فادحا.

لكن ومجرد إجراء الانتخابات وتوحيد الكومونة، كان من الضروري تركيز كل شيء بين أيديها دفعة واحدة، وتشكيل هيئة تمتلك سلطة حقيقية لإعادة تنظيم الحرس الوطني. لم يكن هذا هو الحال. فقد بقيت اللجنة المركزية إلى جانب الكومونة المنتخبة؛ ومنحها طابعها المنتخب سلطة سياسية مكنتها من منافسة الكومونة. لكن وفي الوقت نفسه حرمها ذلك من الطاقة والحزم اللازمين في المسائل العسكرية البحتة، واللذان شكلا سبب وجودها بعد قيام الكومونة.

ليست إمكانية الانتخاب، والأساليب الديمقراطية، سوى إحدى الأدوات في يد البروليتاريا وحزبها. لا يمكن بأي حال من الأحوال اعتبار الانتخابات صنما للعبادة، أو علاجا لكل الشرور. يجب الجمع بين أساليب الانتخابات وبين أساليب التعيين. استمدت الكومونة قوتها من الحرس الوطني المنتخب. لكن ومجرد تأسيسها كان على الكومونة أن تعمل بحزم على إعادة تنظيم الحرس الوطني، من أعلى الهرم إلى أسفله، وتعيين قادة أكفاء له، وإرساء نظام انضباط صارم. لم تفعل الكومونة ذلك، لأنها هي الأخرى كانت تفتقر إلى مركز قيادة ثوري قوي. فتم سحقها هي الأخرى.

القيادة الثورية

يمكننا إذن أن نتصفح تاريخ الكومونة صفحة صفحة، وسنجد فيه درسا واحدا: الحاجة إلى قيادة حزبية قوية.

لقد قدمت البروليتاريا الفرنسية من التضحيات من أجل الثورة أكثر من أي طبقة بروليتارية أخرى. لكنها أيضا تعرضت للخداع أكثر من أي طبقة بروليتارية أخرى. فكثيرا ما خدعتهم البرجوازية مرارا وتكرارا بألوان الجمهورية والراديكالية والاشتراكية، لكي تُقيدهم دائما بأغلال الرأسمالية. فقد طرحت البرجوازية، عبر عملائها ومحاميها وصحفييها، كما هائلا من الصيغ الديمقراطية والبرلمانية والاستقلالية، التي لا تعدو كونها عقبات في طريق البروليتاريا، تعرقل حركتها نحو الأمام.

إن مزاج البروليتاريا الفرنسية حمم بركانية ثورية، لكن هذه الحمم باتت اليوم مغطاة برماد الشك الناتج عن خيبات الأمل والخدع المتكررة. كما يجب على البروليتاريين الثوريين في فرنسا أن يكونوا أكثر حزما تجاه حزبهم، وأن يفضحوا بلا رحمة أي تناقض بين القول والفعل. يحتاج العمال الفرنسيون إلى تنظيم قوي كالفولاذ، يقوده قادة يخضعون لرقابة الجماهير في كل مرحلة جديدة من مراحل الحركة الثورية.

كم من الوقت سيمنحنا إياه التاريخ لكي نستعد؟ لا نعلم. لقد احتفظت البرجوازية الفرنسية طيلة خمسين عاما، بالسلطة في أيديها بعد أن انتخبت الجمهورية الثالثة على أنقاض الكومونيين. لم يكن مقاتلو عام 1871 يفتقرون إلى البطولة، بل افتقروا لوضوح المنهج ولمنظمة قيادية ممركزة. ولهذا السبب تعرضوا للهزيمة.

مر نصف قرن دون أن تتمكن البروليتاريا الفرنسية من طرح مسألة الثأر لمقتل الكومونيين. لكن هذه المرة، سيكون التحرك أكثر حزما وتركيزا. وسوف يتعين على ورثة تيير سداد الدين التاريخي كاملا.

Wellred Books

wellred-books.com

اقرأ تحليل ماركس الخالد لكومونة باريس!

هذه الطبعة (الإنجليزية) تتضمن أيضًا مقال تروتسكي كاملاً، بالإضافة إلى مقالات عن الكومونة لإنجلز ولينين

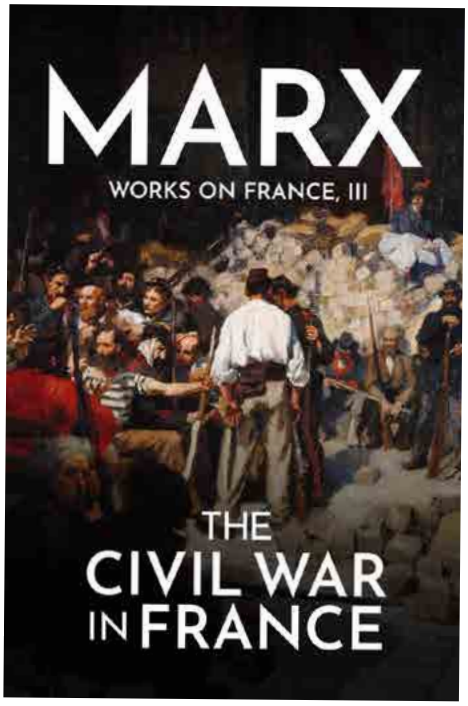

تجمع حاشد خلال المؤتمر الديمقراطي في شيكاغو، 1 أغسطس/آب 1968 (© دينيس براك / Alamy)

الحركة المناهضة لحرب فيتنام: عندما ارتعد العملاق

حشدت الحركة المناهضة لحرب فيتنام في الولايات المتحدة ملايين الأشخاص ضد الحكومة، وأصبحت متنفسا لمطالب شريحة واسعة من المضطهَدين. كان من الممكن في ذلك السياق بناء حزب ثوري قوي لتحدي جبروت الإمبريالية الأمريكية من الداخل. في هذه المقالة، يشرح الرفيق توم تروتييه صعود الحركة المناهضة للحرب، وكيف ضاعت تلك الفرصة التاريخية.

بعد الحرب العالمية الثانية برزت الإمبريالية الأمريكية بكونها قوة اقتصادية وعسكرية جبارة. كان ذلك "العملاق" فريدا من نوعه. هل وُجدت قوة إمبريالية أخرى تمتلك مثل تلك الثروة والقوة النارية الهائلة، بما في ذلك القنبلة الذرية؟ وقد أعلن الجيش الأمريكي بفخر أنه لم يخسر حربا قط. لكن كل ذلك تغير مع حرب فيتنام.

استخدمت الحكومة الأمريكية كل ما في وسعها ضد الشعب الفيتنامي من أجل الحفاظ على هيمنتها الإمبريالية. إلا أن أفعالها فشلت في سحق عزيمة الفيتناميين، وساهمت في إشعال شرارة حركة مناهضة للحرب واسعة النطاق في بطن الوحش تحديدا. فقد أدى مسار الحرب إلى تجذر جماهيري في الداخل. وانقلب استقرار الحكم الرأسمالي الأمريكي إلى نقيضه.

لقد تمكنت الحركة المناهضة للحرب في ذروتها من حشد ملايين الناس في الشوارع، وأصبحت محفزا للنضالات الجماهيرية الأخرى في تلك الفترة. كانت هناك فرص هائلة لبناء حزب شيوعي كبير، قادر على توحيد كل تلك النضالات ومنحها قيادة ثورية. لكن تلك الفرص أُهدرت مع الأسف.

واليوم، في ظل تصاعد المزاج المناهض للإمبريالية في جميع أنحاء العالم، لدى الثوريين الكثير ليتعلموه من دروس تلك الفترة.

الاحتواء

لقد رسخت الحرب العالمية الثانية مكانة الولايات المتحدة الأمريكية باعتبارها القوة الإمبريالية المهيمنة في العالم. وفي الوقت نفسه برز الاتحاد السوفياتي، بعد انتصاره في الحرب على ألمانيا النازية، باعتباره قوة عالمية بشكل واضح. هذا، بالإضافة إلى قيام الأنظمة الستالينية في معظم أنحاء أوروبا الشرقية، عزز بشكل كبير سلطة الستالينية في أجزاء كبيرة من العالم.

كما وضعت الحرب مسألة الثورات التحررية في المستعمرات بقوة على جدول الأعمال في معظم أنحاء العالم، مع استعداد الأحزاب الشيوعية الستالينية للعب دور قيادي فيها. حاولت الإمبريالية الأمريكية تطبيق سياسة "الاحتواء". لقد أرادت إخماد الثورات التحررية، ووقف انتشار الستالينية في جميع أنحاء العالم، أو على الأقل الحد منها. لكن إرهاق القوات الأمريكية جراء الحرب العالمية الثانية قد حد من خيارات الإمبرياليين للتدخل العسكري المباشر في السنوات التي أعقبت الحرب مباشرة.

بعد هزيمة الإمبريالية اليابانية عام 1945، سعت فرنسا إلى استعادة مستعمراتها في الهند الصينية، وهو ما فعلته بدعم من الولايات المتحدة. في أعقاب الثورة الصينية عام 1949 والحرب الكورية (1950-1953)، بدأت البرجوازية الأمريكية تتحدث عن "نظرية الدومينو"، التي تقول بأنه إذا سقط النظام الرأسمالي في بلد ما، فإن جيرانه سيسقطون تباعا وبسرعة. لذلك كان الأمريكيون مصممين على دعم الرأسمالية في فيتنام، التي اعتبروها حيوية للحفاظ على مصالحهم في المنطقة بأكملها.

من عام 1945 إلى عام 1954، خاض الشعب الفيتنامي، بقيادة هو تشي منه، حربا ضد الفرنسيين وانتصر عليهم، في حرب بلغت ذروتها في معركة ديان بيان فو. بعد هزيمة الفرنسيين، دخلت الولايات المتحدة البلاد وأنشأت دولة "فيتنام الجنوبية". هيأ ذلك الوضع الظروف لحرب تحرير وطنية ضد الإمبريالية الأمريكية ونظامها العميل في الجنوب.

وضعت حكومة الكمبرادور الفاسدة في فيتنام الجنوبية الإمبريالية الأمريكية أمام خيارين: إما التخلي عن فيتنام ومشاهدة الرأسمالية وهي تنهار، أو إرسال الجيش الأمريكي لهزيمة قوات التحرير. إلا أن محاولات الإمبرياليين لدعم الرأسمالية في الخارج أدت في نهاية المطاف إلى زعزعة استقرار نظامهم في الداخل، مع صعود حركة جماهيرية مناهضة للحرب.

هدير في بطن الوحش

تراكمت الظروف لتطور تلك الحركة على مدى العقود السابقة.

فعلى سبيل المثال كانت قد حدثت تغيرات جذرية في العلاقات الإثنية في أعقاب الحرب العالمية الثانية. حيث أن العديد من الجنود السابقين السود لم يعودوا مستعدين لتحمل التمييز العنصري في الجنوب عند عودتهم إلى ديارهم، بعد أن خاطروا بحياتهم خلال الحرب.

وفي الشمال وعلى الرغم من أن التمييز لم يكن صريحا كما هو الحال في الجنوب، فقد كانت هناك سياسة متعمدة للفصل العنصري في السكن، تحدد للناس أماكن سكنهم. وقد رافق ذلك نظام من جرائم القتل العنصرية، التي كانت الدولة تتغاضى عنها.

هيأ ذلك الظروف لظهور حركة حقوق مدنية هائلة في خمسينيات القرن العشرين، والتي استمرت حتى ستينياته. تزايدت حدة التجذر بين الأمريكيين السود خلال تلك الفترة. ولم يتمكن العنف الذي مارسته الشرطة ضد المتظاهرين المطالبين بالحقوق المدنية في كبح الحركة، بل زادها قوة وانتشارا.

ساهمت حركة الحقوق المدنية في تجذر شريحة واسعة جدا من الشباب في أوائل الستينيات. تقول أحد التقديرات إنه بحلول منتصف أبريل 1960، شارك نحو 50 ألف طالب في اعتصامات الحقوق المدنية.[1] وإلى جانب ذلك شهدت الثورة الكوبية تصاعدا في وتيرتها، وتفاقمت حدة الفقر في أغنى بلد في العالم. نتيجة لذلك انخرط العديد من الطلاب في العمل السياسي، مقارنة بفترة الهدوء النسبي والامتثال في الخمسينيات.

أصدرت منظمة "طلاب من أجل مجتمع ديمقراطي" (SDS) بيانها "بيان بورت هورون" عام 1962. ورغم أن ذلك البيان تصدى للعداء الواسع النطاق للشيوعية خلال الحرب الباردة، فإنه كان في جوهره نقدا ليبراليا للمجتمع الأمريكي، إذ لم يتحد النظام الرأسمالي. ومع ذلك، وفي ظل الفراغ السياسي الذي ساد في الستينيات، فقد نمت منظمة "طلاب من أجل مجتمع ديمقراطي" نموا هائلا.

أثر التجنيد الإجباري

ما بين 1954 وغشت 1964، اقتصر دور الولايات المتحدة في فيتنام في الغالب على تمويل وتسليح وتدريب النظام العميل لها في الجنوب. وعندما اتضح في عام 1964 أن دولة فيتنام الجنوبية على وشك الانهيار، استخدمت ما سمي بـ"حادثة خليج تونكين" ذريعة لزيادة كبيرة في الوجود العسكري الأمريكي والتدخل المباشر.

تم إرسال آلاف الجنود والسفن والقاذفات إلى فيتنام، ليصل عددهم في نهاية المطاف إلى 543 ألف جندي في يناير 1969.[2] وتولى الجنرال ويليام ويستمورلاند، وهو من قدامى المحاربين في الحرب

الكورية والحرب العالمية الثانية، قيادة العمليات ما بين 1964 و1968.

تم تجنيد أكثر من 1,8 مليون أمريكي خلال الحرب.[3] ونظرا لحركة نقل القوات ذهابا وإيابا، فقد قدر أن حوالي 2,7 مليون جندي أمريكي، من مشاة البحرية والبحارة والطيارين، قد أُرسلوا إلى فيتنام في فترات مختلفة.[4]

لعب التجنيد الإجباري دورا هاما في رفع وعي الشباب وتطوير معارضة الحرب. فبذريعة "محاربة الشيوعية"، أُجبر جيل كامل من الشباب على الانضمام إلى الجيش الأمريكي، مما يعرضهم لخطر الموت أو الإصابة بإعاقة دائمة في أدغال جنوب شرق آسيا. كان ذلك بمثابة سيف ديموقليس مسلط على الشباب وعائلاتهم.

كما أثارت المسألة الطبقية غضبا قويا ضد التجنيد الإجباري. ففي كل مرة يُفرض فيها التجنيد الإجباري، تختلف القواعد المطبقة على العمال عن القواعد المخصصة للأثرياء. كان بإمكان طلاب الجامعات تأجيل خدمتهم العسكرية إلى ما بعد تخرجهم، مما أدى إلى إجبار نسبة أكبر من شباب الطبقة العاملة على الانضمام إلى الجيش. أما من كانت تربطهم علاقات بطبيب، فكان يمكن إعفاؤهم من القتال لأسباب طبية.

وقد كان للعرق دور أيضا. فقد كانت نسبة تجنيد الأمريكيين غير البيض للعمليات القتالية أكبر من نسبة الأمريكيين البيض. ولذلك شكل السود واللاتينيون نسبة أكبر من ضحايا الحرب مقارنة بنسبتهم في سكان الولايات المتحدة آنذاك.[5]

وقد تجلت تلك التوترات عندما حاول الجيش الأمريكي تجنيد الملاكم الشهير محمد علي سنة 1967. ولما رفض علي التجنيد، تم اعتقاله ومُنع من ممارسة الملاكمة، وحُكم عليه بالسجن خمس سنوات. وفي تبريره لقراره، أوضح علي قائلا:

«لماذا يُطلب مني ارتداء الزي العسكري والذهاب عشرة آلاف ميل بعيدا عن وطني لإلقاء القنابل والرصاص على ذوي البشرة السمراء في فيتنام، بينما يُعامل من يُطلق عليهم اسم "الزنوج" في لويفيل معاملة الكلاب ويُحرمون من أبسط حقوق الإنسان؟
لن أُسيء إلى ديني أو شعبي أو نفسي بأن أصبح أداة لاستعباد من يناضلون من أجل العدالة والحرية والمساواة».

ورغم أن علي تعرض لحملة تشويه إعلامية كبيرة، فإن فعله قد لاقى بدون شك صدى قويا بين العديد من الشباب السود الذين تم استدعاؤهم للقتال. كان

باتجاه عقارب الساعة من أعلى اليسار:
• قنابل النابالم تنفجر على منشآت جبهة التحرير الوطني (NLF) جنوب سايغون
• إعدام النقيب نجوين فان ليم (Nguyễn Văn Lém) من جبهة التحرير الوطني، 1 فبراير/شباط 1968
• أسرى من جبهة التحرير الوطني (NLF) تم أسرهم خلال عملية ثاير الثانية (Operation Thayer II)
• جندي أمريكي يحرق قرية ماي لاي (Mỹ Lai)، 16 مارس/آذار 1968

العديد من هؤلاء الجنود يعيشون في ظل التمييز الذي وصفه علي، ولا شك أن نضالات حركة الحقوق المدنية وحركة مناهضة الحرب في الداخل قد لاقت استحسانهم. وقد أسفرت تلك العوامل لاحقا عن تمردات داخل الجيش الأمريكي نفسه.

تزايد المعارضة

في فبراير 1965 بدأ سلاح الجو الأمريكي قصف أهداف في شمال فيتنام. تفاخر الجنرال كورتيس ليماي، الذي شارك في قصف الولايات المتحدة لليابان في الحرب العالمية الثانية، بأن الولايات المتحدة قادرة على قصف فيتنام "حتى تعود إلى العصر الحجري". وبالفعل فقد ألقت الولايات المتحدة على فيتنام كمية من المواد المتفجرة أكثر مما ألقته جميع الأطراف خلال الحرب العالمية الثانية.[6]

فتح الإمبرياليون أبواب الجحيم على شعب فيتنام، ثم على كمبوديا ولاوس لاحقا. لكن ولأول مرة في التاريخ، كانت الحرب تبث على التلفزيون. ونتيجة لذلك بدأ العديد من العمال والشباب الأمريكيين، الذين يشاهدون المجازر من منازلهم، يتساءلون: لماذا يحدث هذا؟

التلفزيون في ظل الرأسمالية قطاع تجاري يقوم على بيع الإعلانات. ورغم أنهم كانوا، بطبيعة الحال، يروجون لموقف مؤيد للولايات المتحدة، فإنهم أرادوا أيضا تصوير الواقع المرير للحرب، الذي يُعد بلا شك أعظم مأساة. عرضت التلفزيونات والصحف والمجلات صورا صادمة وقبيحة لتلك الحرب، بطريقة لم يسبق لها مثيل. أتذكر أنني كنت في العاشرة من عمري تقريبا، وكنت أشاهد نشرة الأخبار اليومية التي تُعلن عن عدد القتلى. كان ذلك العرض بلا انقطاع، وكان له أثر بالغ على تفكير الشعب الأمريكي.

قيل للشعب الأمريكي إنها حرب "ضد الشيوعية". لكنهم كانوا يشاهدون في وسائل الإعلام حقيقة قتل وجرح كبار السن والأطفال. تعرضت مناطق شاسعة للقصف الجوي المكثف، أو لإلقاء النابالم ومبيد الأعشاب "العامل البرتقالي". وأحرقت القوات الأمريكية قرى بأكملها.

أدرك الكثيرون جنون الحرب عندما نقل عن ضابط أمريكي برتبة رائد، تعليقه على معركة بن تري، حيث قال: "كان من الضروري تدمير المدينة لإنقاذها". وشاهد الجمهور كيف تستولي الولايات المتحدة على الأراضي، ثم تتخلى عنها، ثم تستعيدها بعد فترة وجيزة. ما الذي كان ينجز حقا؟

مع اتساع رقعة الحرب، ازداد النشاط المناهض للحرب في العديد من الجامعات، بما في ذلك ندوات تثقيفية حول الحرب. وقررت منظمة "طلاب من أجل مجتمع ديمقراطي" الدعوة إلى مسيرة مناهضة للحرب في واشنطن في 17 أبريل 1965. وهي المظاهرة التي حضرها ما بين 15.000 و25.000 شخص، وهو عدد فاق بكثير توقعات المنظمين.[7]

لم تكن منظمة "طلاب من أجل مجتمع ديمقراطي" هي القوة الراديكالية الوحيدة التي نمت، لكنها كانت الأكبر. كما كانت هناك تحالفات عديدة للحركات المناهضة للحرب، والتي عبأت للمظاهرات

مسيرة واشنطن من أجل الوظائف والحرية، 1963 – مارتن لوثر كينغ يظهر في الوسط

الجماهيرية وجمعت الكثير من الشباب الذين اكتسبوا وعيا سياسيا.

مع تزايد قوة الحركة المناهضة للحرب، صارت قيادتها تميل سياسيا نحو اليسار. قبل مسيرة واشنطن في أبريل 1965، كانت الحركة المناهضة للحرب بقيادة منظمة "سان" (SANE)، وهي جماعة ليبرالية مناهضة للشيوعية. بعد ذلك تولى الشيوعيون والاشتراكيون والمسالمون والشباب الراديكاليون زمام القيادة.

طال أمد الحرب، وازداد التدخل العسكري الأمريكي بشكل ملحوظ. وبشكل ديالكتيكي ازدادت كذلك قوة نقيضها، أي: الحركة المناهضة للحرب. ضمت المظاهرات التي جرت في أواخر أكتوبر 1967 نحو 300 ألف متظاهر في مدينة نيويورك، و50 ألفا آخرين في واشنطن العاصمة. وقُدِّر عدد المشاركين في الحركة خلال الحرب بنحو 10 ملايين شخص.[8]

نقطة التحول: هجوم تيت

كانت الإمبريالية الأمريكية بحاجة إلى أن تُلحق هزيمة ساحقة بحركة التحرر الوطني.

وأي شيء أقل من ذلك كان سيعني هزيمة الولايات المتحدة. كان الفيتناميون يعلمون أنهم إذا واصلوا القتال، فسوف ينتصرون.

نصح الرئيس ليندون جونسون الشعب الأمريكي بالصبر، وأشار إلى أن النصر بات وشيكا. طوال سنة 1967 وحتى 30 يناير 1968، استمر الثلاثي المكون من الرئيس جونسون ووزير الدفاع ماكنمارا والجنرال ويستمورلاند في التأكيد على أن الشيوعيين الفيتناميين "على وشك الهزيمة". ومن المفارقات أن هذا الأمر خدم مصالح الشيوعيين، الذين شنوا هجوم تيت في 30 يناير 1968.

تيت هو احتفال برأس السنة الفيتنامية وعطلة رئيسية. وكان اختيار ذلك التاريخ موعدا لشن الهجوم مفاجأة كاملة للإمبرياليين الأمريكيين ونظام فيتنام الجنوبية. شن جيش الشعب الفيتنامي (المعروف أيضًا باسم جيش فيتنام الشمالية) ووحدات حرب العصابات في الجنوب، بقيادة جبهة التحرير الوطني، هجوما متزامنا على 100 مدينة وبلدة وقاعدة عسكرية أمريكية، بما في ذلك أجزاء من عاصمة الجنوب، سايغون.

ظاهريا، كان هجوم تيت فاشلا. إذ خسر الفيتناميون الشماليون وجبهة التحرير الوطني 45 ألف جندي، بالإضافة إلى أسر 7 آلاف آخرين، دون أن ينجحوا في السيطرة على أي من أهدافهم. وقُتل أكثر من 14 ألف مدني. أما الولايات المتحدة وحلفاؤها الفيتناميون، فقد خسروا أكثر من 6 آلاف جندي، وجرح أكثر من 15 ألفا.

لكن هذه الأرقام لم تكن القصة الرئيسية. فقد وجه ذلك الهجوم الهائل ضربة نفسية لم تتعاف منها الإمبريالية الأمريكية قط. كان الأمر صادما لشريحة واسعة من الشعب الأمريكي الذي صدّق دعاية جونسون. وعلاوة على ذلك، كان واضحا للجميع أن الفيتناميين ماتوا

اعتصام خلال المسيرة المناهضة للحرب على البنتاغون، 21 أكتوبر/تشرين الأول 1967

مسيرة مناهضة للحرب في سان فرانسيسكو، 15 أبريل/نيسان 1967

وهم يقاتلون لتحرير بلادهم من قبضة الإمبريالية. لكن ما الذي مات الجنود الأمريكيون من أجله؟

كان رد فعل الجنرال ويستمورلاند على هجوم تيت هو طلب 200 ألف جندي إضافي، ليصل إجمالي القوات الأمريكية إلى ما يقارب 750 ألف جندي. تسرب طلبه إلى وسائل الإعلام، مما ساهم في ترسيخ شعور لدى الشعب بأن الحرب خاسرة لا محالة، وأن مزاعم الحكومة السابقة بـ"النصر الوشيك" ما هي إلا كذبة. وبدأ كثيرون، بمن فيهم الجنود، يدركون أن الغالبية العظمى من الشعب الفيتنامي تقف إلى جانب الشيوعيين، وتعارض الولايات المتحدة ونظامها العميل. وتوقعا لعدم شعبية تلك الخطوة، تم رفض الطلب.

لذا فقد مثل هجوم تيت نقطة تحول حاسمة في الحرب وانتصارا حقيقيا للشيوعيين. وبدأ الشعب الأمريكي يفقد ثقته بالحكومة وينقلب على الحرب، كما فعل العديد من أفراد الجيش الأمريكي.

1968: عام ثوري

كان عام 1968، مثل عام 1848، عاما ثوريا بامتياز. ففي مطلع ذلك العام وقع هجوم تيت الذي وجه رسالة مفادها أنه بإمكان الشعوب أن تنتفض وتناضل ضد حكامها.

في ماي من ذلك العام، خرج الطلاب في فرنسا إلى الشوارع، وسرعان ما تلا ذلك إضراب عام شارك فيه 10 ملايين عامل. وفي تشيكوسلوفاكيا، اجتذب "ربيع براغ" العمال بشكل متزايد إلى العمل السياسي، قبل أن تسحقهم الدبابات السوفيتية في غشت. وفي المكسيك، اندلعت حركة طلابية جماهيرية، من يوليوز إلى أكتوبر، تعرضت لقمع عنيف. كما شهدت باكستان ثورة أطاحت بالديكتاتور أيوب خان.

شهدت الولايات المتحدة بدورها اضطرابات وانتفاضات. وكان مارتن لوثر كينغ جونيور الزعيم الأبرز لحركة الحقوق المدنية. وقد أعلن معارضته لحرب فيتنام، وساعد في تنظيم العمال في نقابات ضمن "حملة الفقراء".

كما أدلى كينغ بتصريحات مؤيدة لـ"الاشتراكية الديمقراطية"، مما يشير إلى أنه كان يفكر في إمكانية معارضة النظام الرأسمالي بشكل صريح. كان تحت مراقبة دائمة من طرف مكتب التحقيقات الفيدرالي، ومع ذلك تم اغتياله في 4 أبريل 1968.

عندما سمع الناس نبأ مقتل مارتن لوثر كينغ، اندلعت انتفاضات في أكثر من 100 مدينة، قُمعت بوحشية من قبل الدولة. وجاءت تلك الانتفاضات بعد أقل من عام على اندلاع انتفاضات ضد العنصرية في أكثر من 150 موقعا.

أحدث هجوم تيت أيضا انقساما حقيقيا داخل الحزب الديمقراطي الحاكم. قرر السيناتور يوجين مكارثي من ولاية مينيسوتا الترشح ضد الرئيس جونسون في عام 1968 ومنافسته على ترشيح الحزب

الديمقراطي بناء على معارضته للحرب. وقد اكتسبت حملة مكارثي زخما كبيرا بعد هجوم تيت، عندما حقق بشكل مفاجئ أداء جيدا في الانتخابات التمهيدية في نيو هامبشاير في فبراير. الشيء الذي دفع السيناتور روبرت ف. كينيدي إلى دخول السباق في 16 مارس كمرشح "معارض للحرب". بعد ذلك بوقت قصير، أعلن جونسون أنه لن يترشح لولاية ثانية.

تعرض روبرت كينيدي لاحقا لعملية اغتيال في يونيو 1968، مما زاد من اضطراب ذلك العام.

في غشت، أرادت فئة من الحركة المناهضة للحرب مواجهة الديمقراطيين في مؤتمرهم بشيكاغو. لكن عمدة شيكاغو دبّر حملة قمع بوليسية واسعة النطاق لمنع ذلك. هاجمت شرطة شيكاغو والحرس الوطني المتظاهرين بوحشية بالغاز المسيل للدموع والهراوات، مما أسفر عن إصابة المئات. بُثّت هذه الأحداث مباشرة على التلفزيون، بينما كان المتظاهرون يهتفون "العالم كله يشاهد".

تلك الأحداث صدمت شريحة واسعة من الشعب. ويتذكر رون فيريزي، رئيس طاقم مروحية أمريكية، بعد مشاهدته الأحداث على التلفزيون في فيتنام، قائلا:

«في تلك اللحظة، أدركت أن كل من يهتم حقا بأمريكا يتم إرساله إلى أقصى العالم، ليطارد أشباحا في الأدغال، ويقتل جدة شخص آخر، بلا أي سبب على الإطلاق. وفي الوقت نفسه، بلادي تُمزق إربا. رأيت شخصا يشبه والدي يضرب شخصا يشبهني. يا إلهي، إلى جانب من سأكون؟».[9]

في النهاية، حُوكم ثمانية من قادة حركة مناهضة الحرب، من بينهم بوبي سيل من حزب الفهود السود. ورغم إدانة خمسة أشخاص بتهمة "عبور حدود الولايات بقصد التحريض على الشغب"، فقد أُلغيت إدانتهم في الاستئناف.

رشح الديمقراطيون هوبرت همفري، نائب الرئيس في عهد جونسون. لكنه خسر الانتخابات أمام الجمهوري ريتشارد نيكسون، الذي وعد بإنهاء الحرب لكن... "بشرف".

1969: تراجع الإمبريالية

في ضوء ما سبق، أدرك نيكسون ضرورة سحب القوات الأمريكية في أسرع وقت ممكن. أدركت الحكومة أنها لا تستطيع تحقيق أهدافها بالقوات البرية الأمريكية، وأنها بحاجة إلى كبح جماح الحركة المتنامية المناهضة للحرب في الداخل.

لذلك بدأت الحكومة بسحب القوات الأمريكية في منتصف عام 1969، وأعلن نيكسون استبدال القوات الأمريكية بجنود فيتناميين في عملية أُطلق عليها اسم "الفتنمة" (Vietnamisation). لكن وعلى الرغم من تقليص التجنيد الإجباري، فقد بقي مئات الآلاف من الجنود في فيتنام، والذين كان من المقرر أن يكتمل انسحابهم التدريجي في نوفمبر 1972.

في غضون ذلك، نُشرت تقارير في نوفمبر 1969 عن مذبحة ارتكبها الجيش الأمريكي ضد المدنيين في قرية ماي لاي عام 1968. قُتل ما لا يقل عن 347 قرويا أعزل، بينما تعرض عدد من النساء والأطفال للاغتصاب.

كتلة قدامى المحاربين من أجل السلام (Veterans for Peace) في مسيرة البنتاغون، 21 أكتوبر/تشرين الأول 1967 (جورج لويس)

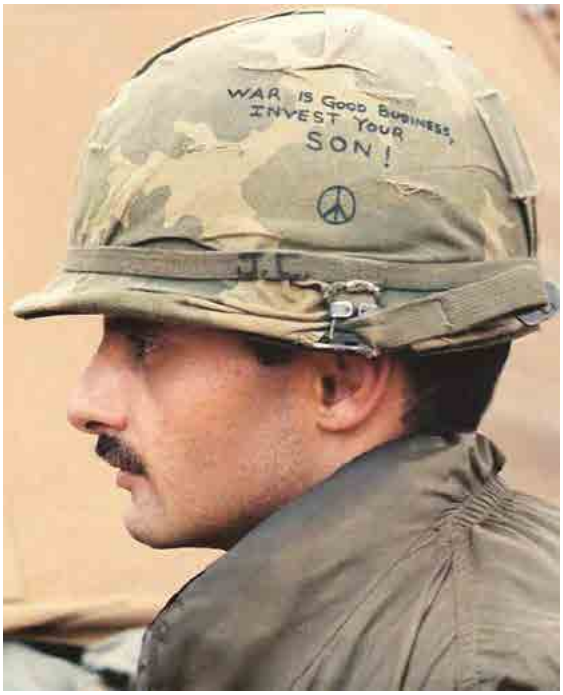

جندي أمريكي، التاريخ غير معروف

ومع سماع أخبار جرائم الحرب هذه، استمرت الحركة المناهضة للحرب في النمو. تظاهر ما بين 500 ألف و750 ألف شخص في واشنطن في نوفمبر 1969 ضد استمرار نيكسون في الحرب، فيما كان آنذاك أكبر مظاهرة مناهضة للحرب في تاريخ الولايات المتحدة.[10]

وبالإضافة إلى الاحتجاجات الجماهيرية، تزايدت حالات التهرب من التجنيد. ونظم الشباب احتجاجات أحرقوا خلالها بطاقات التجنيد. وخلال فترة الحرب، صنفت الحكومة حوالي 570 ألف رجل على أنهم "مخالفون لقواعد التجنيد".[11]

بحلول سنة 1970، أفاد رئيس فرقة العمل الحكومية المعنية بالتجنيد الإجباري بأن عدد المتهربين من الخدمة العسكرية "يتزايد بمعدل ينذر بالخطر"، وأن الحكومة "عاجزة تقريبا عن القبض عليهم ومحاكمتهم".[12]

بدأ الجناح اليساري للحركة في استخلاص استنتاجات ثورية. ومع أن منظمة "طلاب من أجل مجتمع ديمقراطي" كانت قد بدأت بكونها جماعة يسارية ليبرالية في أوائل الستينيات، فإن معظم أعضائها صاروا يعتبرون أنفسهم ثوريين. حضر مؤتمر المنظمة عام 1969 نحو 1500 شاب، مقارنة بـ 60 شابا فقط عام 1962. ومع تجاوز عدد أعضائها 100 ألف عضو، انتشرت فروعها في العديد من الكليات والجامعات في أنحاء البلاد، وفي بعض المدارس الثانوية.[13]

إضافة إلى ذلك، كانت مجموعات مثل الفهود السود، وحزب العمال الاشتراكي الأمريكي (SWP)، وغيرها من المنظمات اليسارية، تشهد نموا سريعا. ومن بين تلك المنظمات كانت هناك مجموعة اللوردات الشباب، وهي مجموعة راديكالية من البورتوريكيين في نيويورك وشيكاغو، استلهمت أفكارها من منظمة الفهود السود، وكانت مشابهة لها.

وعلى الرغم من أن كلا من حركة الفهود السود وحركة اللوردات الشباب كانتا تنظمان أنشطتهما حول قضايا محددة تواجه سكان الأحياء الحضرية (سوء ظروف السكن، جوع الأطفال، وحشية الشرطة)، إلا أنهما تعاطفتا مع حركات التحرر الوطني في جميع أنحاء العالم، ولا سيما النضال الفيتنامي.

تمرد الجنود

ساهم كل ذلك في تمرد الجنود الأمريكيين في فيتنام. وبحلول عام 1967، بدأ بعض الجنود والبحارة ومشاة البحرية المسرحين بالانضمام إلى محاربين قدامى آخرين وأسسوا منظمة تُدعى "محاربو فيتنام القدامى ضد الحرب".

ربما ذهب المجندون الأوائل إلى فيتنام وهم يحملون أوهاما بشأن ما كانوا يقومون به، لكن واقع القتال وأهوال الحرب غيرتهم. أما الجنود الجدد، فكانت لديهم أوهام أقل منذ البداية. فقد جاء الكثير منهم إلى فيتنام وهم يحملون مشاعر مناهضة للحرب، أو على الأقل كانوا متشككين في وجهات النظر التي طرحها البنتاغون.

بحلول منتصف عام 1969، عندما بدأ نيكسون في سحب القوات الأمريكية، بدأ الانهيار التام في الروح المعنوية والانضباط عند الوحدات المقاتلة. وتحولت تكتيكات "البحث والتدمير" إلى "البحث والتفادي".

بدأ الشعب الأمريكي في الداخل ينقلب على الحرب، وبدأ العديد من الجنود يتساءلون: من أجل ماذا أموت؟ لماذا أضحي بنفسي؟ وقد عبّرت الكتابات على جدران دورات المياه عن الغضب تجاه القيادة العسكرية العليا والسياسيين الأمريكيين. وتزايدت حالات إدمان الكحول والمخدرات.

في النهاية، وبدءا من عام 1969، بدأ بعض الجنود باستهداف الضباط الذين اعتبروهم متحمسين للغاية للقتال. فإذا لم يتمكن الجنود من إقناع قائدهم بإنهاء "المهمة"، كانوا يلقون قنبلة يدوية داخل خيمته. وقد أشار المؤرخ ريتشارد غابرييل إلى مقتل ما لا يقل عن 1017 ضابطا وضابط صف بتلك الطريقة، ورجح أن ما يصل إلى 20% من الضباط الأمريكيين الذين قُتلوا في فيتنام ربما لقوا حتفهم على أيدي جنودهم.[14]

كتب العقيد روبرت د. هاينل جونيور، مؤرخ سلاح مشاة البحرية الأمريكية، عن انهيار الجيش الأمريكي آنذاك:

«صارت معنويات وانضباط وجاهزية القوات المسلحة الأمريكية للقتال، باستثناءات قليلة، أدنى وأسوأ مما كانت عليه في أي وقت مضى في هذا القرن، وربما في تاريخ الولايات المتحدة. بحسب كل المؤشرات الممكنة، جيشنا المتبقي في فيتنام على وشك الانهيار، حيث تتجنب بعض الوحدات القتال أو ترفضه، وتقتل ضباطها وضباط صفها، وتنتشر فيها المخدرات، ويعاني أفرادها من اليأس والإحباط، بل ويكادون يتمردون.

إضراب رابطة المساعدين التدريسيين في جامعة ويسكونسن-ماديسون عام 1970

والوضع لا يقل خطورة في أماكن أخرى غير فيتنام...

... كل الحقائق السابقة -والعديد من المؤشرات الخطيرة الأخرى عن أسوأ أنواع الاضطرابات العسكرية- تشير إلى تفشي ظروف بين القوات الأمريكية في فيتنام لم يتجاوزها في هذا القرن سوى تمرد نيفيل في الجيش الفرنسي عام 1917 وانهيار الجيوش القيصرية عامي 1916 و1917».[15]

العمال والحرب

أظهرت استطلاعات الرأي أن معارضة الحرب كانت سائدة بين جميع الفئات العمرية، بل وكانت في أعلى مستوياتها بين الأجيال الأكبر سنا والأقل تعليما.[16] ومع ذلك فقد كان معظم المشاركين في المظاهرات المناهضة للحرب من الشباب، وخاصة الطلاب.

ولكي تتمكن الحركة من ضرب الجذور الإمبريالية للحرب، كان من الضروري أن تستقطب الطبقة العاملة المنظمة. وذلك لأن العمال هم وحدهم القادرون في نهاية المطاف على انتزاع زمام الاقتصاد من أيدي الرأسماليين، وشل المجتمع.

بعد تطهير الحركة العمالية من اليسار في أواخر الأربعينيات والخمسينيات، اندمج الاتحاد الأمريكي للعمل (AFL) ومؤتمر المنظمات الصناعية (CIO) في اتحاد عمالي واحد. وبشكل عام فقد أيدت قيادة النقابات السياسة الخارجية للإمبريالية الأمريكية، وعملت بتنسيق وثيق مع وكالة المخابرات المركزية الأمريكية (CIA).

في 8 ماي 1970، وقع هجوم شنيع شنه نحو 500 من عمال البناء -أصحاب "الخوذات الصلبة" (Hard hats)- في نيويورك ضد مظاهرة طلابية مناهضة للحرب. لم تعتقل الشرطة أيا من هؤلاء الذين هاجموا الطلاب، رغم إصابة 70 طالبا.

تجدر الإشارة إلى أن العديد من الطلاب اليساريين لم يحاولوا طرح أفكارهم بأسلوب يفهمه أبناء الطبقة العاملة. كان العديد من هؤلاء العمال من قدامى المحاربين في الحرب العالمية الثانية، وقد استشاطوا غضبا لرؤية العلم الأمريكي يُحرق أو يُدنس.

في 20 ماي نظمت نقابة عمال البناء في مدينة نيويورك مظاهرة لإظهار "الحب والدعم للعلم الأمريكي". شارك في تلك المظاهرة نحو 50 ألف عامل، كان حضور العديد منهم إلزاميا من قِبل النقابات، وتلقى بعضهم أجرا إضافيا مقابل حضورهم. عززت تلك الحادثة الصورة النمطية لـ "العامل الأمريكي المحافظ".

كانت هناك بالفعل فئات من الطبقة العاملة مؤيدة لحرب فيتنام. لكن استطلاعات الرأي أظهرت أنه كلما قلّ دخل الأفراد، قلّ دعمهم للحرب.[17]

بدأ غضب العديد من أعضاء النقابات تجاه الحرب يُؤتي ثماره. فبعد فترة وجيزة من مظاهرة عمال البناء، نظمت نحو اثنتي عشرة نقابة في مدينة نيويورك احتجاجا **ضد** الحرب. وقد شمل ذلك نقابة موظفي الدولة والمقاطعات والبلديات (AFSCME)، وعمال التوزيع، وعمال المستشفيات، وعمال النسيج. ورغم حضور نحو 25 ألف عامل، فإنهم لم يتقاضوا أجرا مقابل ذلك، بل شاركوا على حسابهم الخاص.

في السابع من ماي، قرر والتر رويتر، زعيم النقابة المتحدة لعمال قطاع

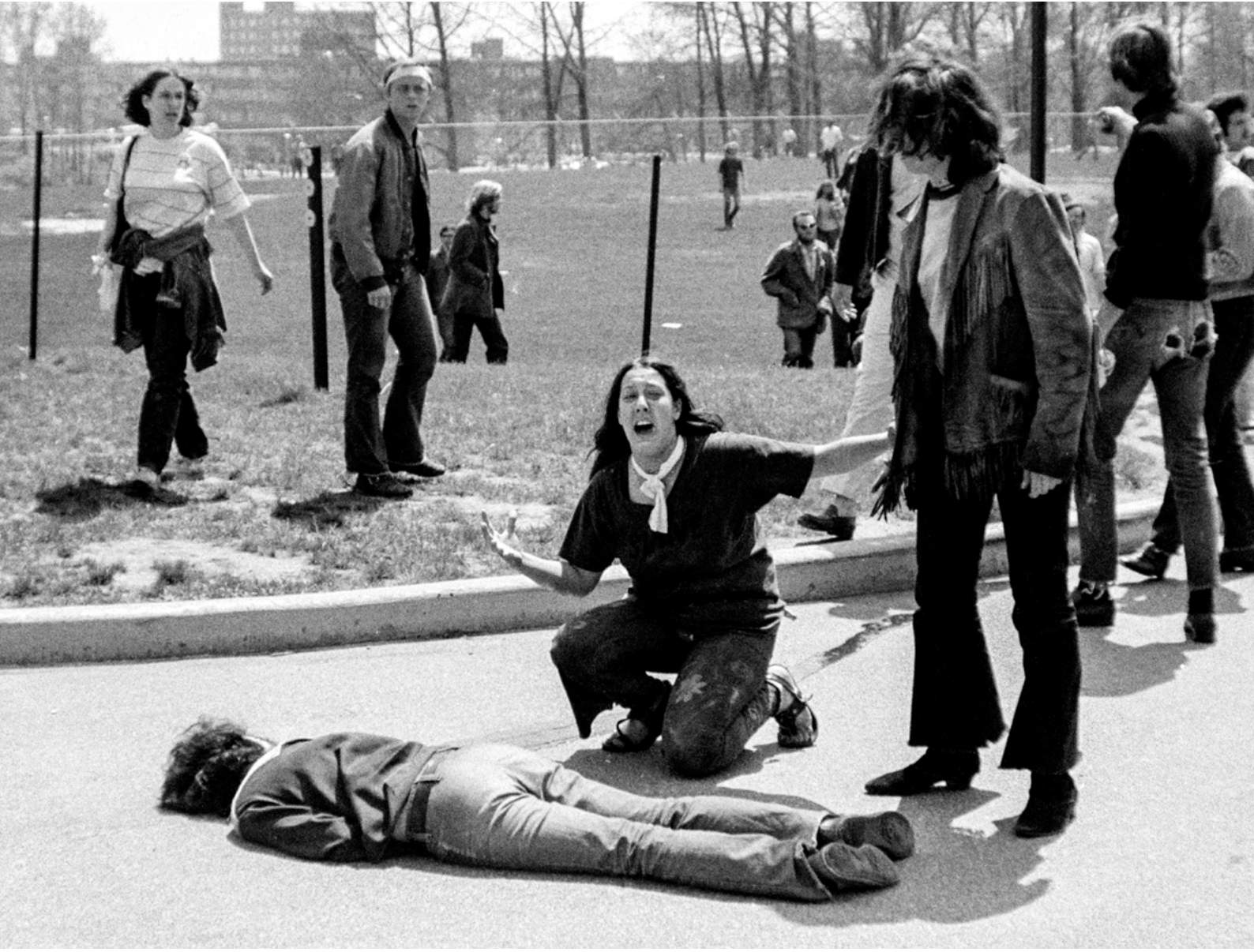

المتظاهر في جامعة كينت ستيت بولاية أوهايو، جيفري ميلر، يُقتل رمياً بالرصاص

السيارات (UAW)، أن يعارض علنا توسيع الحرب لتشمل كمبوديا. لكنه مع الأسف توفي في حادث تحطم طائرة بعد يومين، وسط شكوك بوجود عملية اغتيال.[18] كانت النقابة المتحدة لعمال قطاع السيارات ذات أهمية بالغة لكونها نقابة صناعية كبيرة وقوية، كانت تُحدد معايير عقود العمل آنذاك.

شهدت حرب فيتنام العديد من الإضرابات، خاصة بالمقارنة مع الوضع الحالي. وتُظهر الإحصاءات الفيدرالية حول الإضرابات الكبرى ما يلي: في عام 1969، نُفذ 412 إضرابا شارك فيها أكثر من 1,5 مليون عامل. وفي عام 1970، نُفذ 381 إضرابا شارك فيها ما يقرب من 2,5 مليون عامل. وفي عام 1971، نُفذ 298 إضرابا شارك فيها **أكثر** من 2,5 مليون عامل. هذا مقارنة مع عام 2023، وهو العام الذي شهد إضرابات واسعة النطاق، حيث لم يُسجل سوى 35 إضرابا شارك فيها 460 ألف عامل.[19]

لم تكن تلك إضرابات سياسية، بل إضرابات اقتصادية، معظمها بسبب الأجور. ترتبط قضية الأجور بالتضخم، إذ يؤدي ارتفاع الأسعار إلى تآكل مستوى معيشة العمال.

كان التضخم يتصاعد في الستينيات وأوائل السبعينيات، وكان لحرب فيتنام دور كبير في ذلك. من أسباب التضخم: إنفاق الحكومة على الجيش والأسلحة. يحصل العمال في تلك الصناعات على أجور، لكنهم لا ينتجون خدمات أو سلعا استهلاكية. وهذا يزيد الطلب في الاقتصاد، بينما لا يزيد العرض. أراد الرئيسان جونسون ونيكسون تجنب زيادة الضرائب بسبب حرب غير شعبية، فعملا على الإنفاق بالعجز لتمويل "الأسلحة والخدمات الأساسية". بين يناير 1963 ويناير 1971، ارتفع التضخم بنسبة 32%.[20]

الخوف من الثورة

لا شك أنه بحلول أوائل السبعينيات، بدأ القلق يساور العديد من ممثلي الطبقة السائدة وأجهزة الدولة. فقد ازدادت الإضرابات، والمشاكل الاقتصادية التي تسببت فيها، ولا سيما التضخم. إضافة إلى ذلك كانت هناك حركة الحقوق المدنية وانتفاضة السود، وحركة النساء، و"الثقافة المضادة" الشبابية عموما. وشهدت البلاد تمردات للسجناء وصعود حركة السكان الأمريكيين الأصليين.

كانت البلاد على وشك الانفجار، بينما كانت معنويات القوات الأمريكية في فيتنام

تنهار. وقد علّق الماركسي البارز، تيد غرانت، على الوضع، في صيف 1972 قائلا:

«هذا هو الجيش الأكثر انهيارا للمعنويات في التاريخ. لو كانت هناك حركة اشتراكية قوية في أمريكا، لكان الرأسماليون الأمريكيون في ظل هذه الظروف يواجهون الثورة الاشتراكية».[21]

أصبحت الحركة المناهضة للحرب محورا يجمع كل تلك النضالات المتنوعة. ولهذا السبب تحديدا رأت الطبقة السائدة في ذلك خطرا يهدد نظامها.

ومع اضطراره لسحب القوات البرية، حوّل نيكسون استراتيجيته إلى قصف وغزو كمبوديا (بشكل سري في البداية) في سنتي 1969-1970، ولاوس سنة 1971. قيل إن الهدف من ذلك كان قطع الإمدادات والتعزيزات عن طريق "ممر هو تشي منه"، والذي اعتقد نيكسون أنه سيتمكن من خلاله من إجبار فيتنام الشمالية على الجلوس إلى طاولة المفاوضات.

أثار ذلك رد فعل داخلي غاضب. ظهر نيكسون على شاشة التلفزيون في 30 أبريل 1970 ليعلن الغزو البري لكمبوديا، مما أشعل فتيل مظاهرات عفوية خلال الأيام الموالية.

في 4 ماي، تجمع الطلاب في جامعة كينت ستيت بولاية أوهايو للاحتجاج ضد الحرب. زعمت الشرطة أن المظاهرة "غير قانونية" وتم استدعاء قوات الحرس الوطني. بدأ بعض جنود الحرس الوطني بإطلاق النار، مما أسفر عن مقتل أربعة طلاب وإصابة العديد غيرهم.

بعد أحداث جامعة كينت ستيت، خرج أكثر من أربعة ملايين طالب وغيرهم في احتجاجات تُعد من أكبر وأوسع الاحتجاجات المناهضة للحرب في تلك الفترة، وشملت ما لا يقل عن 883 حرما جامعيا في كل أنحاء البلاد.[23,22] شكّلت مجزرة كينت ستيت نقطة تحوّل أخرى في وعي الملايين. كان الهدف المعلن للحرب هو "الدفاع عن الديمقراطية". لكن تم قتل وجرح طلاب لمجرد تعبيرهم عن معارضتهم للحرب.

لو كان هناك حزب شيوعي جماهيري قادر على توحيد نضالات الجماهير تحت مظلة برنامج اشتراكي، لكان بالإمكان تحويل الإمكانات الهائلة للطبقة العاملة في تغيير المجتمع إلى واقع. لكن للأسف لم يكن هناك حزب كهذا آنذاك، بل لم تكن هناك حتى نواة حزب كهذا.

ونتيجة لذلك، بدأت الحركة تدخل مرحلة انحدار في أعقاب التصعيد الحاد الذي أعقب حادثة إطلاق النار في جامعة كينت ستيت.

انحسار الحركة

الأمر الذي كان جليا هو أنه مع بدء الحكومة الأمريكية في سحب أعداد كبيرة من قواتها من فيتنام، انخفض عدد المشاركين في الحركة المناهضة للحرب انخفاضا حادا.

لم تكن للحركة المناهضة للحرب قيادة مركزية قط، بل كانت تتألف دائما من أجنحة مختلفة. كان هناك ليبراليون، ودعاة سلام، وعناصر دينية، و"اليسار القديم"، بالإضافة إلى ما يُسمى "اليسار الجديد".

أدى الفشل التاريخي لكل من الحزب الشيوعي وحزب العمال الاشتراكي في استقطاب الطبقة العاملة الأمريكية وتدريب الكوادر الجديدة (مثل الفهود السود واللوردات) إلى فراغٍ هائل. وهكذا تحرك "اليسار" البرجوازي الصغير لملء ذلك الفراغ.

منظمة "طلاب من أجل مجتمع ديمقراطي"، التي كانت أكبر منظمات الشباب الراديكالي، كانت منظمةً انتقائية بحد ذاتها. اعتبرت قيادتها نفسها على أنها جزء من اليسار الجديد، الذي كان يرفض

BRING THE WAR HOME!
OCCUPATION TROOPS OUT OF VIETNAM, LATIN AMERICA, ALL OTHER FOREIGN COUNTRIES, BLACK AND BROWN COMMUNITIES, AND THE SCHOOLS.
CHICAGO, OCT 11
ALL POWER TO THE PEOPLE!
new left notes
sds
inside

صحيفة "ملاحظات اليسار الجديد" الصادرة عن منظمة "طلاب من أجل مجتمع ديمقراطي"، المجلد 4، العدد 24، 8 يوليو/تموز 1969

"اليسار القديم" الستاليني والتروتسكي والاشتراكي الديمقراطي. تأثرت تلك الحركة بالأكاديميين البرجوازيين الصغار من "مدرسة فرانكفورت"، ولا سيما هربرت ماركوزه، الذين جادلوا بأن الطبقة العاملة قد فسدت بفعل السلع الاستهلاكية والدعاية البرجوازية لدرجة تمنعها من القيام بأي دور ثوري. لم يكن هناك قط أي توجه جاد داخل حركة "طلاب من أجل مجتمع ديمقراطي" لدراسة الماركسية الحقيقية، ولم يفكروا في التعلم من التاريخ.

وبشكل عام فقد تجاهل اليسار الجديد الطبقة العاملة الأمريكية. فقد اعتبروا أن الثورة ستأتي من الطلاب وغيرهم من الفئات المضطهدة، بناء على الإثنية والجنس والعمر والميول الجنسية. لم يروا أي مبرر لبناء حزب ثوري. واعتقدوا أن أعمال المقاومة ستدفع أجزاء من السكان إلى التمرد والثورة. وهم بهذا المعنى كانوا

احتجاج منظمة "طلاب من أجل مجتمع ديمقراطي" في جامعة هارفارد، 1969 (© AP / ج. والتر غرين / Alamy)

أشبه بالنارودنيين الروس في ثمانينيات القرن التاسع عشر، لكن بالتكيف مع أمريكا في ستينيات القرن العشرين.

البرجوازية الصغيرة، وبحكم موقعها الوسطي بين الرأسماليين وبين الطبقة العاملة، من طبيعة سياستها التأرجح بين الانتهازية وبين النزعة اليسارية المتطرفة، ثم العكس مجددا. وبسبب تركيزهم على "الفرد"، يميل البرجوازيون الصغار إلى الانغلاق على أنفسهم، مما يؤدي إلى انقسام الحركات بدلا من التركيز على ما يمكن أن يوحدها. إنهم يتطلعون إلى الحيل و"النجاح الفوري" بدلا من النظر إلى الأمور من منظور أوسع. يميلون إلى استبدال الحركة الجماهيرية بتحركاتهم -كأقلية صغيرة-. ويرفضون، أو يعجزون، عن إدراك أن الطبقة التي تمتلك كلا من القوة الكامنة والمصلحة الحقيقية في تغيير المجتمع -أي الطبقة العاملة- هي المفتاح.

وبسبب عدم وجود أساس نظري واضح لبرنامجها انقسمت منظمة "طلاب من أجل مجتمع ديمقراطي" عام 1969. وفي النهاية انضم العديد من أعضائها إلى مجموعات عديدة شكلت اليسار العصبوي في سبعينيات القرن العشرين.

انشقت حركة الفهود السوداء وحركة اللوردات الشباب بسبب القمع الوحشي للدولة، من جهة وبسبب نقاط ضعفهم الداخلية من جهة أخرى. بدأت تلك الأحزاب ببضعة أفراد ونمت بسرعة. كانت القيادة مرتجلة وتبنت مزيجا انتقائيا من الأفكار. انصب جزء من نشاطهم على بناء الحزب، بينما انصب جزء آخر على إدارة برامج الخدمات الاجتماعية، مثل توفير وجبات إفطار مجانية للأطفال في الأحياء الفقيرة. وبطبيعة الحال نشأت الخلافات. ولم تُعالج تلك الخلافات بطريقة

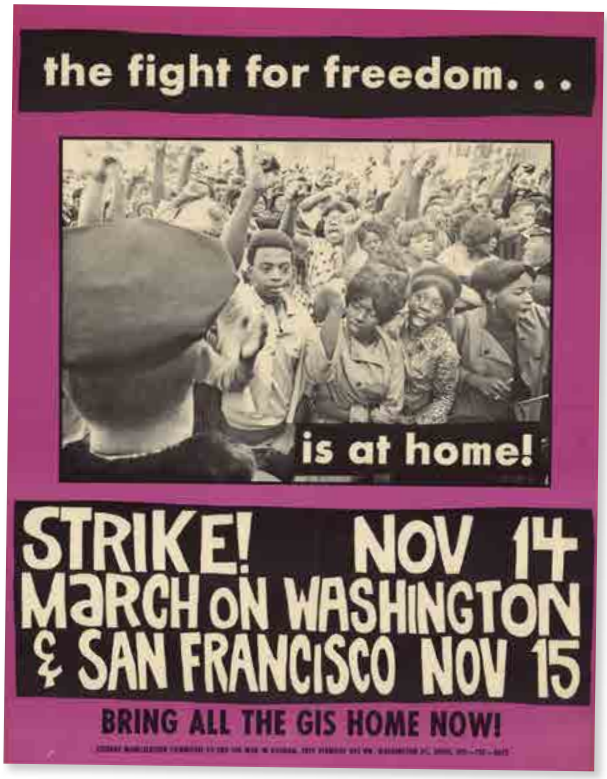

ملصقات صادرة عن لجنة تعبئة الطلاب لإنهاء حرب فيتنام .
1969 ⟵ 1971 ⟵

تُنظم نقاشات تهدف إلى رفع المستوى النظري للأعضاء، ما أدى بالتالي إلى اندلاع صراعات محبطة وحدوث انشقاقات.

كانت الحركة المناهضة للحرب منظمة في الغالب كتحالف "بقضية واحدة". وينبع جزء كبير من ذلك من تحليل القادة للحرب. هل رأوا الحرب باعتبارها نتيجة حتمية للإمبريالية؟ أم أنهم، مثل العديد من الليبراليين، كانوا ضد الحرب فقط لأن الولايات المتحدة كانت تخسرها؟

لم تُقم الحركة علاقات مع الطبقة العاملة المنظمة إلا في سنواتها الأخيرة، وحتى حينها لم تكن الطبقة العاملة هي القوة الدافعة لها. يعود سبب ذلك جزئيا إلى قادة النقابات. لكن قادة الحركة المناهضة للحرب لم يبذلوا جهدا حقيقيا ومنسقا لاستمالة القواعد العمالية، ودعم إضرابات النقابات، وربط القضايا ببعضها، لا سيما فيما يتعلق بمسألة التضخم.

وعلى الرغم من أن شباب الطبقة العاملة هم من خاضوا الجزء الأكبر من القتال في فيتنام، فإن اليسار الجديد ظل معاديا للطبقة العاملة، مما أدى إلى إضعاف الحركة بشدة.

فشل القيادة

دخل وقف إطلاق النار حيز التنفيذ في 28 يناير 1973، وبحلول ذلك الوقت كانت جميع القوات الأمريكية تقريبا قد انسحبت. وفي أعقاب ذلك استمر نظام الكمبرادور في فيتنام الجنوبية في فقدان الدعم الشعبي، حتى انهار عام 1975.

مشاهد المروحيات على سطح السفارة الأمريكية، وصور المروحيات والمعدات الأخرى التي أُلقيت من حاملات الطائرات الأمريكية في المحيط، قد أظهرت بوضوح أن العملاق الأمريكي الإمبريالي قد مُني بهزيمة نكراء. لقد كانت تلك لحظة تاريخية فارقة، كان لها أثر عميق على المجتمع بشكل عام، إذ زعزعت العديد من الأوهام التي كانت لدى الشعب في المؤسسات الحاكمة.

تزامنت المرحلة الأخيرة من حرب فيتنام مع نهاية الازدهار الاقتصادي الذي أعقب الحرب العالمية الثانية. ومع اندلاع الأزمة الرأسمالية العالمية في عام 1973، بدأ العمال الأمريكيون يواجهون هجوم الطبقة الرأسمالية على أجورهم ومكتسباتهم وظروف عملهم، لعقود قادمة.

لو توفرت قيادة ثورية آنذاك، لكان من الممكن توحيد الحركة المناهضة لحرب فيتنام مع نضالات الطبقة العاملة وحركة الحقوق المدنية، ولساهمت في تأسيس حزب عمالي حقيقي. مع وصول كل من الحرب والحركة إلى نهايتهما، كان بإمكان القيادة الثورية توجيه النضال نحو معركة الوظائف وضد تقديم تنازلات لأرباب العمل. لذا، من الضروري التساؤل عن سبب عدم ظهور تلك القيادة.

كان الحزب الشيوعي الأمريكي أكبر قوة في اليسار الأمريكي منذ أوائل عشرينيات القرن العشرين. وفي سنة 1928 سيطرت الستالينية على الحزب. وتحت قيادتها، تبنى الحزب سياسات انتهازية في معظمها منذ سنة 1936 فصاعدا. وقد خسر الحزب العديد من أعضائه سنة 1956 بسبب حدثين: الثورة المجرية عام 1956، التي قمعتها القوات السوفياتية؛ وفضح خروتشوف لجرائم عهد ستالين.

وفي ستينيات القرن العشرين، لعب الحزب الشيوعي الأمريكي دورا مؤسفا داخل الحركة المناهضة للحرب. إذ استمر في السير وراء الديمقراطيين، أو على الأقل الديمقراطيين "المناهضين للحرب". لم يطالب بسحب القوات الأمريكية فورا، بل طالب الحكومة الأمريكية بالتفاوض مع الفيتناميين.

كان البديل الرئيسي للحزب الشيوعي الأمريكي الستاليني هو حزب العمال الاشتراكي. بعد نفي تروتسكي من الاتحاد السوفياتي في أواخر العشرينيات، بذل قصارى جهده لتثقيف جيل جديد من الكوادر الماركسية. وخلال تلك الفترة، لم

نيكسون في صحيفة تابعة لمنظمة "طلاب من أجل مجتمع ديمقراطي"،

يتلق أي فرع من فروع المعارضة اليسارية الأممية (والأممية الرابعة لاحقا) دعما من تروتسكي أكثر مما تلقاه الفرع الأمريكي، الذي أسس حزب العمال الاشتراكي عام 1938.

لكن وعلى الرغم من ذلك فإن الكوادر الأمريكية القيادية لم تتمكن أبدا من استيعاب المنهج الديالكتيكي للماركسية، وتطبيقه في دراسة المنظورات وبناء الحزب. وبعد اغتيال تروتسكي سنة 1940، لم يكن هناك من تستمع إليه القيادة ليرشدها إلى الطريق الصحيح عند ارتكابها الأخطاء.

أدى النهج الميكانيكي، وغير الماركسي في نهاية المطاف، الذي اتبعه حزب العمال الاشتراكي إلى تفويت فرص ثمينة خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها. كانت فترة ما بعد الحرب فترة عصيبة على اليسار الثوري في جميع البلدان الرأسمالية المتقدمة، ولا سيما في أمريكا. كانت المهمة هي تثقيف الكوادر، ثم استغلال الفرص الجديدة التي ستتاح لهم لاحقا، كما حدث بوضوح في ستينيات القرن الماضي مع حركات الحقوق المدنية والحركات المناهضة للحرب. استغل حزب العمال الاشتراكي تلك الفرص إلى حد ما، لكنه،

وبسبب افتقاره إلى البوصلة النظرية اللازمة، فقد انحرف نحو الانتهازية.

بناء الحزب الثوري أم بناء الحركة؟

استراتيجية حزب العمال الاشتراكي تجاه حرب فيتنام استندت أساسا على البحث عن طرق مختصرة لبناء الحزب، وتبني نهج إصلاحي تجاه الحرب. تخلى الحزب تماما عن منطق النسبية. رأى قادته أن دور الحزب هو بناء حركة مناهضة للحرب إلى مستوى يسمح لها بإجبار الجيش الأمريكي على الانسحاب. ثم الانخراط، بعد هذه المرحلة، في النضال من أجل الاشتراكية.

يبدو أنهم افترضوا أن بناء الحزب سيكون نتيجة تلقائية لنجاح تلك الحركة. انصب تركيزهم على بناء الحركة، لا على بناء الحزب وتدريب الكوادر الماركسية. واقتصر "التدريب" الذي تلقاه الأعضاء الجدد على كيفية تنظيم مظاهرات حاشدة.

كان حزب العمال الاشتراكي القوة المهيمنة داخل لجنة تعبئة الطلاب لإنهاء حرب فيتنام، لا سيما منذ عام 1967. نظمت تلك اللجنة العديد من المظاهرات المحلية والوطنية. لكن المشكلة كانت هي أن الدافع الرئيسي كان حشد أكبر عدد ممكن من الناس للمظاهرات، باعتماد القاسم المشترك "اخرجوا الآن".

برر فريد هالستيد، زعيم حزب العمال الاشتراكي، نهجهم في كتابه "اخرجوا الآن"، حيث قال:

«**دافع حزب العمال الاشتراكي عن استقلالية الحركة المناهضة للحرب باعتبارها قوة جماهيرية. [...] كانت الحركة جبهة موحدة من نوع خاص**، لا بين منظمات جماهيرية للطبقة العاملة من أجل مجموعة محددة من المطالب، بل بين عناصر متنوعة ومن طبقات مختلفة، كان الرابط الوحيد الذي يجمعها هو معارضة الحرب. **كان عليها أن تقتصر على تنفيذ خطوات حول هذا الهدف المركزي لكي تحافظ على تماسكها**».[24] (التشديد من عندنا)

لكن بينما كان أعضاء الحزب يسعون جاهدين لحشد أعداد غفيرة في المظاهرات، من كان من داخل الحزب يُقدم الحجج السياسية ضد الرأسمالية عموما؟ أي شرح أنه حتى لو انتهت الحرب، فما لم تستول الطبقة العاملة على السلطة، ستظل الإمبريالية الأمريكية قائمة، وستندلع حروب أخرى مماثلة. وأنه لكي يصل العمال إلى السلطة، فهم بحاجة إلى حزب، ويجب بناء ذلك الحزب.

ومع أن قيادة حزب العمال الاشتراكي قد صرحت بموافقتها على كل ذلك، فإن ذلك لم يكن أسلوبها في تدريب وتعبئة أعضائها. والسبب في ذلك هو أنه لو دافع عدد كبير من الرفاق عن نضال عمالي ضد الإمبريالية، فإن ذلك كان سيؤثر سلبا على التحالف متعدد الطبقات -تلك "الجبهة الموحدة من نوع خاص"- وسيؤدي إلى إبعاد العناصر المؤيدة للرأسمالية.

يُظهر هذا النهج برمته مدى قوة البراغماتية والنزعة التجريبية لدى قيادة حزب العمال الاشتراكي. فقد أرادوا التركيز على الحاضر: وقف الحرب. إلا أن التركيز الأساسي كان ينبغي أن ينصب على **كيفية بناء الحزب على النحو الأمثل**، وكسب شريحة أوسع من الحركة نحو منظور وبرنامج ثوريين.

وإلى جانب هذه الانتهازية، تبنى حزب العمال الاشتراكي نهجا عصبويا تجاه منظمة "طلاب من أجل مجتمع ديمقراطي". لماذا لم ينضم الشيوعيون إلى الحركة عندما كانت في أوج نموها؟ لماذا لم يحاولوا استقطاب بعض هؤلاء الطلاب الراديكاليين؟ كانت تلك الحركة منفتحة وكان الشباب يبحثون عن إجابات. وقد نجحت المجموعة الماوية العصبوية، حزب العمل التقدمي، في استقطاب العديد من هؤلاء الطلاب. لكن ونظرا لعجز برنامجهم عن التواصل مع العمال في الولايات المتحدة، فقد أُهدرت طاقات هؤلاء الطلاب.

لقد تمكن حزب العمال الاشتراكي من تحقيق النمو خلال تدخله في الحركة المناهضة لحرب فيتنام، لكن قاعدة الكسب كانت ضعيفة للغاية. وفي النهاية ما الذي تحقق؟ في عام 1959، كان لدى حزب العمال الاشتراكي حوالي 600 عضو في 12 مدينة مختلفة، منهم ما يقارب 100 عضو في كل من نيويورك ولوس أنجلس.[25] وفي عام 1977، أي بعد ثمانية عشر عاما، بلغ عدد أعضائه حوالي 1760 عضوا في أكثر من 50 مدينة، منهم 2000 عضو في منظمته الشبابية، بعضهم أعضاء في الحزب، والبعض الآخر على هامشه.[26] كانت تلك ذروة ازدهار حزب العمال الاشتراكي.

لو اتبع الحزب نهجا مختلفا، لكان في مقدوره أن ينمو بشكل أكبر، نظرا للفرص التي سنحت له. بعد 1977 بفترة وجيزة، دخل الحزب في فترة ركود، ثم فترة انحدار حاد مع دوامة من الانشقاقات والطرد.

من الواضح أنهم بنوا الحزب أساسا على التعبئة لوقف الحرب، ولم يدربوا أعضاءه الجدد تدريبا كافيا ليصيروا كوادر ماركسية. نشر الحزب العديد من الكتب، لكنه لم يبذل أي جهد يذكر لضمان قراءة الأعضاء الجدد أو الأعضاء القدامى لها. يتضح ذلك من سرعة انهيار حزب العمال الاشتراكي في أوائل ثمانينيات القرن العشرين.

مهمة الشيوعيين

في حركة واسعة النطاق مثل الحركة المناهضة للحرب، من الطبيعي وجود مكونات سياسية متنوعة تمثل طبقات وشرائح مختلفة في المجتمع. يتمثل دور الماركسيين في التدخل في تلك الحركات وربطها بالطبقة العاملة، وكذلك إيصال قضايا الحرب إلى الطبقة العاملة. وتتمثل طريقة التدخل في تسليط الضوء على الأسباب الجذرية للحرب، وشرح أن الطبقة العاملة وحدها القادرة على بناء عالم

اشتراكي، الذي هو الأساس الوحيد للسلام الدائم.

بمجرد أن بدء الديمقراطيون المناهضون للحرب في الانفصال عن الرئيس جونسون عام 1968، حاولوا استمالة الحركة المناهضة للحرب إلى صفهم. كان على الشيوعيين أن يطالبوا الحركة بعدم الوقوع في ذلك الفخ، وأن تقدم مرشحا مستقلا. كان على الحركة أن تدعو النقابات العمالية إلى الانفصال عن الديمقراطيين وتأسيس حزب عمالي. وحتى لو لم يوافق جناح من الحركة المناهضة للحرب على ذلك، فإن مثل ذلك النهج كان سيفتح المجال أمام المزيد من الدعم للشيوعيين ويساعد في ربط الحركة بالطبقة العاملة.

كان من الواضح أن منظمة "طلاب من أجل مجتمع ديمقراطي" قد كسبت أكبر عدد من الشباب الراديكالي، الذين كان الكثير منهم يبحث عن حلول ثورية ومنفتحا على الأفكار الشيوعية الثورية. لم يكن الأمر يتعلق بكسب تأييد جميع أعضاء منظمة "طلاب من أجل مجتمع ديمقراطي"، بل باستقطاب أفضل العناصر من بينهم.

كان من الصواب تماما أن يشارك الشيوعيون في الحركة مناهضةً للحرب وأن يساعدوا في بنائها. ومع ذلك فقد كان لا بد من القيام بذلك دون تمييع أفكارهم أو إخفاء هويتهم. إن الوعي الثوري لا يتطور بشكل خطي؛ ففي ظل ظروف معينة يمكنه أن يتطور بقفزات. وعليه فإن طرح الأفكار بطريقة واضحة وجريئة يمكن أن يحقق نتائج أفضل بكثير من طرحها بطريقة مترددة وخجولة.

كان من الممكن أن يؤدي اتباع نهج صحيح من قبل ولو عدد قليل من الماركسيين الحقيقيين، في عام 1964 وما بعده، إلى خلق قوة أكبر بكثير لبناء حزب شيوعي جماهيري في الولايات المتحدة اليوم. لكن حزب العمال الاشتراكي، في نهاية المطاف، لم يكن في وضعٍ سياسي يسمح له بالقيام بذلك.

مهامنا اليوم

لا يمكننا أن نكتفي ببساطة بنسخ التاريخ ولصقه في ظروف اليوم، لكن يمكننا استخلاص العبر من الماضي وتكييفها بمهارة مع ظروفنا الحالية.

لقد استخلصت البرجوازية العبر من تجربة فيتنام. لقد ألغت التجنيد الإجباري عام 1973، ولم تعِده قط، حتى خلال حربي العراق وأفغانستان. لقد أدركوا أن فعل ذلك قد يؤدي إلى تكرار ما حدث بين عامي 1965 و1972، لكن على نطاق أوسع بكثير.

ستستمر الحروب ما دام النظام الرأسمالي قائما. وسوف تنتج بعض تلك الحروب، لا محالة، حركات جماهيرية مناهضة للحرب، كما أظهرت ذلك حرب الإبادة الجماعية الإسرائيلية ضد الفلسطينيين. يربط الشيوعيون اضطهاد الفلسطينيين بالرأسمالية والإمبريالية الأمريكية، ويشرحون أن طريق تحررهم يمر عبر طريق الثورة الاشتراكية العالمية.

وقد بدأ أكثر الشباب جدية في استخلاص استنتاجات ثورية، ونتوقع أن تتجه شرائح أوسع من بينهم نحو الأفكار الشيوعية. والشيوعيون الذين يتعلمون دروس الماضي سيكونون أكثر استعدادا للاستفادة من الفرص الحالية والمستقبلية لبناء الحزب ليصبح قوة جماهيرية قادرة على قيادة الطبقة العاملة إلى النصر في جميع أنحاء العالم.

المراجع متاحة على الانترنيت عبر:
marxist.com/idom-52-references

أو يمكن مسح رمز الاستجابة السريعة (QR code)

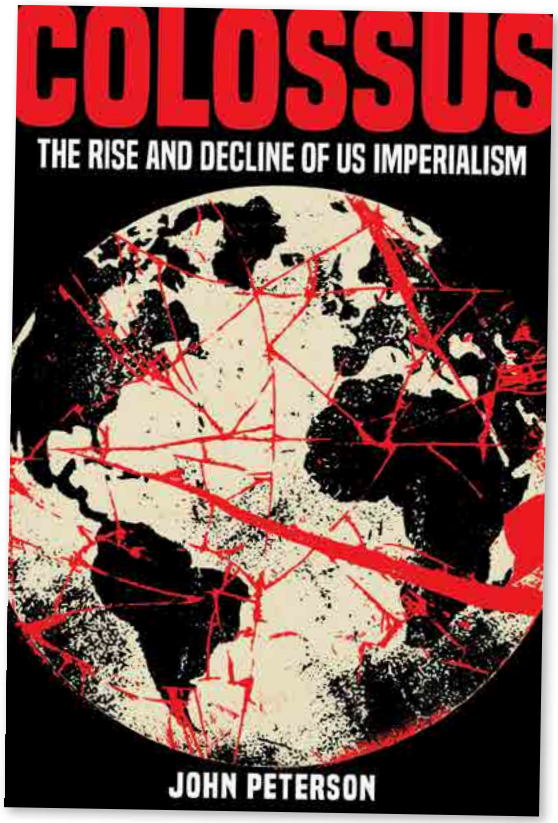

Wellred Books
wellred-books.com

الجبل السحري:
صورة لانحطاط البرجوازية

صورة معدّلة لكتلة مونت روزا الجبلية، في جبال الألب الليبونتينيّة بسويسرا

تُجسد رواية توماس مان "الجبل السحري" ببراعة عجز البرجوازية عن دفع المجتمع إلى الأمام. يستكشف هذا المقال، بقلم الرفيق دانيال مورلي، كيف هزت وحشية الحرب العالمية الأولى نظرة توماس مان بعمق، وكيف يصور كتابه بذكاء انحطاط طبقة استنفدت دورها التاريخي.

رواية توماس مان "الجبل السحري" تحفة أدبية من روائع القرن العشرين. إنها رواية تُجسد أزمة البرجوازية في مرحلة انحطاطها.

تُعبر الرواية، من خلال شخصياتها وأحداثها في جبال سويسرا، عن عجز البرجوازية الألمانية والأوروبية وارتباكها، وعن الطريق المسدود الذي وصل إليه نظامها الاجتماعي. وعلى الرغم من أن الرواية مكتوبة بأسلوب واقعي في مجمله، فإن للمكان والأحداث طابعا سرياليا جميلا، يساهم في إيصال إحساس بأن تلك الطبقة تعيش على وقت مستعار.

تدور أحداث الرواية حول شخصية هانز كاستورب، البرجوازي العادي خريج الجامعة، الذي يزور ابن عمه في مصحة فاخرة لمرضى السل في دافوس. كان هانز ينوي البقاء لثلاثة أسابيع فقط، لكنه انجذب إلى عالم المصحة الآسر، بنمط حياتها الأفقي المترف. تغطي الرواية السنوات السبع الغريبة التي قضاها هناك، والأمور السياسية والعلمية والجنسية التي تعلمها خلال تلك الفترة.

تأثير الحرب العالمية الأولى

بدأ مان كتابة الرواية عام 1912، قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى، بعد زيارته لأخته في المصحة نفسها التي تدور فيها أحداث الرواية. وهناك، كما هو الحال مع بطل الرواية، فحصه طبيب لاحظ وجود خلل في رئتيه، فنصحه بالبقاء لعدة أشهر. ورغم أنه تمكن من تجنب سحر ذلك المكان الخامل، فإن فكرة الاستسلام له ظلت تراوده.

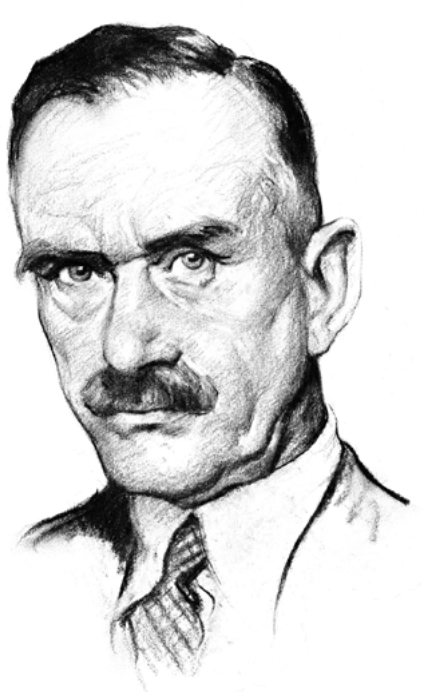

توماس مان، رسم توضيحي بقلم صموئيل جونسون وولف، 1934

كان مان عضوا مثقفا للغاية في الطبقة البرجوازية الألمانية، وقد عبّرت كتبه عن التناقضات والأزمات التي مرت بها تلك الطبقة في أوائل القرن العشرين. كان مُلما بمشاكل البرجوازية وقلقها وروحها. لقد فهم بعمق نفسيتها في عصر الثورة والثورة المضادة، ولا سيما ترددها، وانقسامها إلى فصائل متناحرة من الليبراليين التقدميين والرجعيين المتشددين.

مع بداية الحرب شارك مان في البداية الطبقة البرجوازية في ميلها المتزايد نحو اللاعقلانية والتشاؤم. كان فلاسفته المفضلون هم شوبنهاور ونيتشه، وكلاهما روجا للفردية النخبوية، وكان نيتشه يؤمن بضرورة هيمنة النخب على العالم. ولذلك كان من أشد المؤيدين لدخول ألمانيا الحرب العالمية الأولى، التي رآها وسيلة للألمان لكي ينغمسوا في ثقافتهم الخاصة.

إلا أن أهوال الحرب أجبرته على تغيير نظرته للعالم. صار قلقا بشدة من مخاطر اللاعقلانية النيتشوية وفلسفتها القائمة على هيمنة الأرستقراطية. وبدلا من ذلك تطلع نحو العقل والعلم ليقودا البشرية إلى مستقبل أكثر عدلا. ونتيجة لذلك قام بتنقيح الكتاب وتوسيعه ليصبح ملحمة، أثرتها أزمة المجتمع الألماني والأوروبي التي مثلتها الحرب.

كان هذا أيضا سببا جعل مان يكتب رواية "الجبل السحري" على شكل تراجيديا. فالموت والمرض موضوعان رئيسيان في الرواية، والتي تتميز بطابع تأملي وبطيء وحالم. وبنظرة شاملة، تسود الرواية أجواء من العجز، أشبه بحلم يقاتل فيه المرء، لكنه لا يستطيع توجيه لكمة، كما لو كان غارقا في الماء.

مرض النظام

عندما يصل هانز، يكون غريبا على هذا العالم. فهو قادم من "الأراضي السهلية"، وهو الاسم الذي يُطلقه النزلاء على غير المرضى، تماما مثلما كان القراصنة يطلقون على غيرهم اسم "أهل البر". وفي غضون أسبوع أو أسبوعين، يتعرف على شخصيات عديدة، وعلى سمات الحياة وطقوسها في ذلك المصح. ويتعلم أشياء غريبة، مثل ما ذُكر هنا:

«... المرض علامة شرف، وتأكيد [للمرضى] على مكانتهم المرموقة. وبتحريض من مدير المصحة، الدكتور بيرنز، يفتخرون بمرضهم ويتحدثون عن قدرتهم على اكتسابه باعتبارها "موهبة"».[1]

كان مان قلقا مما رآه افتتانا خطيرا بالمرض والموت والماضي المثالي الذي طبع الثقافة الأوروبية آنذاك. ويُعد اختيار تلك المصحة الحصرية المكتظة بالأثرياء المتوهمين للمرض ضربة عبقرية، لأنها تُبرز جو الانحلال الذي يسود الرأسمالية في أقصى مراحل تطورها.

كانت العقود التي سبقت الحرب العالمية الأولى في أوروبا تُعرف باسم "العصر الجميل". في تلك العقود ازدهرت أوروبا وازدادت تكاملا، وسادها سلام واستقرار غير مسبوقين. لكن ذلك الازدهار لم يكن سوى تمهيد للأزمة الإمبريالية التي بلغت ذروتها في كارثة الحرب العالمية الأولى.

بالنسبة لشخص برجوازي مثل مان، كان ذلك يعني أن أوروبا في العصر الجميل بدت، عند النظر إليها بأثر رجعي، وكأنها لم تحقق إنجازات عظيمة، بل كانت تسير نحو الكارثة وهي نائمة. أو بتعبير آخر، وكما قال ماركس، هناك عقود لا يحدث فيها شيء، وهناك أيام تحدث فيها أحداث تعادل عقودا. فإذا كانت سنوات الحرب العالمية الأولى الأربع قد كثفت عقودا من الأحداث، فإن العقود التي سبقتها كانت أشبه بأيام معدودة.

وبهذا المعنى تحديدا تشكل التجربة الذاتية المضطربة والمربكة للزمن موضوعا رئيسيا في هذا الكتاب. يمثل سكون المصحة أوروبا ككل خلال العقود التي سبقت الحرب العالمية الأولى.

يؤدي تدفق التجارب الجديدة على هانز، خلال فترة زمنية قصيرة، إلى شعوره وكأنه كان هناك لزمن طويل، بينما لم يمض على وجوده سوى أسبوع أو أسبوعين. يُحلل مان بطريقة فلسفية كيف أنه على الرغم من الفهم الشائع بأن الإثارة تجعل الوقت يمر سريعا، فإنها تبدو أيضا وكأنها تُطيله، نظرا لكثرة الأحداث فيه. وفي ذلك المنتجع المعزول، يُضيع هؤلاء البرجوازيون المرضى ما تبقى من أيامهم في المغازلة والثرثرة، بينما تمر السنون أمام أعينهم:

«الانتظار يعني التسرع، ويعني اعتبار الزمن واللحظة الحاضرة ليس بكونهما نعمة، بل عائقا؛ ويعني جعل مضمونهما الحقيقي باطلا، من خلال تجاوزهما ذهنيا. نقول إن الانتظار طويل. وقد نقول أيضا -أو بالأصح- إنه قصير، لأنه يستهلك فترات زمنية كاملة دون أن نعيشها أو نستفيد منها. ويمكننا أن نشبه من يعيش على الترقب برجل جشع، يعمل جهازه الهضمي على هضم كميات كبيرة من الطعام دون تحويلها إلى شيء ذي قيمة أو فائدة غذائية».[2]

في ذلك الجو المدلل المترف، تغمر المرضى نزعة انحطاط وسخرية مفرطة أو تشاؤمية، مثلما يحذر سيتيمبريني، الشخصية التي تمثل آخر البرجوازية التقدمية في أوروبا، هانز قائلا:

«احذر من ذلك النوع من السخرية المنتشرة هنا [...] إنها تؤدي إلى الانحطاط، وتصبح عائقا أمام الحضارة، وتجارة مشبوهة مع قوى الرجعية».[3]

لذا يُعد هذا الكتاب رمزيا للغاية يصور مشاكل عصره من وجهة نظر البرجوازية على الأقل. لقد كشفت وحشية الحرب العالمية الأولى، بلا شك، عن المأزق الذي وصل إليه المجتمع البرجوازي، وقد أدرك مان التدهور الفكري الذي كان قد بدأ يتبلور.

كانت عبقرية مان تكمن في إدراكه لعمق ذلك التوجه وأهميته في مطلع القرن العشرين، وفي اختياره لمكان وزمان مناسبين تماما لإبرازه بطريقة مقنعة، ولا سيما من خلال تردد شخصياته، مثلما يوضح في بداية الكتاب:

«لا يعيش الإنسان حياته الشخصية فحسب، باعتباره فردا، بل يعيش أيضا، شعوريا أو لا شعوريا، حياة عصره ومعاصريه [...] وبالتالي فإنه إذا شعر بأن حياته، وزمنه الخاص، رغم ما قد يبدو عليهما من أحداث مثيرة أو مشوقة، خاليان في جوهرهما مما يغذي تطلعاته، وإذا أدرك في قرارة نفسه أن ذلك الفراغ بلا أمل وبلا أفق وعاجز، ويواجه بصمت أجوف كل الأسئلة التي يطرحها الإنسان [...] فإنه في هذه الحالة، لا بد أن يحدث للشخصية نوع من الضمور».[4]

مأزق البرجوازية

على الرغم من أن الرواية تتناول الأفكار، فإنها تجذب القارئ كرواية تربوية، أي قصة نمو شخصي أو نضج. وبهذا تجدنا نتفاعل عاطفيا مع تجربة هانز ونشاركه وجهة نظره باعتباره غريبا في ذلك الوسط الغريب. رحلته الشخصية هي أيضا رحلة استكشافية لأفكار ومشاكل البرجوازية الأوروبية عندما يبدو وكأنه مفترق طرق، لكنه في الحقيقة طريق مسدود.

ومن النقاط المحورية في الرواية ذلك الإعجاب الرومانسي الذي يكنه هانز لامرأة روسية تُدعى كلوديا. نتعرف عليها بشكل غير مباشر، إذ ينزعج هانز من صوت إغلاقها باب غرفة الطعام بقوة. يصف مان ببراعة هوس هانز بتصرفاتها المزعجة، وينجح بطريقة ما في إيصال فكرة للقارئ بأن هذا دليل على حبه لها (أو بالأحرى حبه للتصور الذي كونه عنها)، وليس على كرهه لها.

علاقة هانز الرومانسية مع كلوديا مليئة بالإثارة والترقب والقلق. يعيش هانز حالة من النشوة لمدة أسبوع كامل لمجرد مرورها بجانبه في الممر بطريقة غريبة وفي وقت غير معتاد، ما يدفعه للاعتقاد بأنها ربما فعلت ذلك عمدا من أجل رؤيته.

يجد القارئ نفسه في آن واحد مستمتعا ومنجذبا عاطفيا إلى لعبة الغميضة الرومانسية هذه. تُجسد لعبة هانز مع كلوديا هوس الطبقة البرجوازية في المصحة بالنميمة والمكانة الاجتماعية والمظاهر،

صورة من المستقبل من "حرب الغاز" (1916)، رودولف إيبرلي

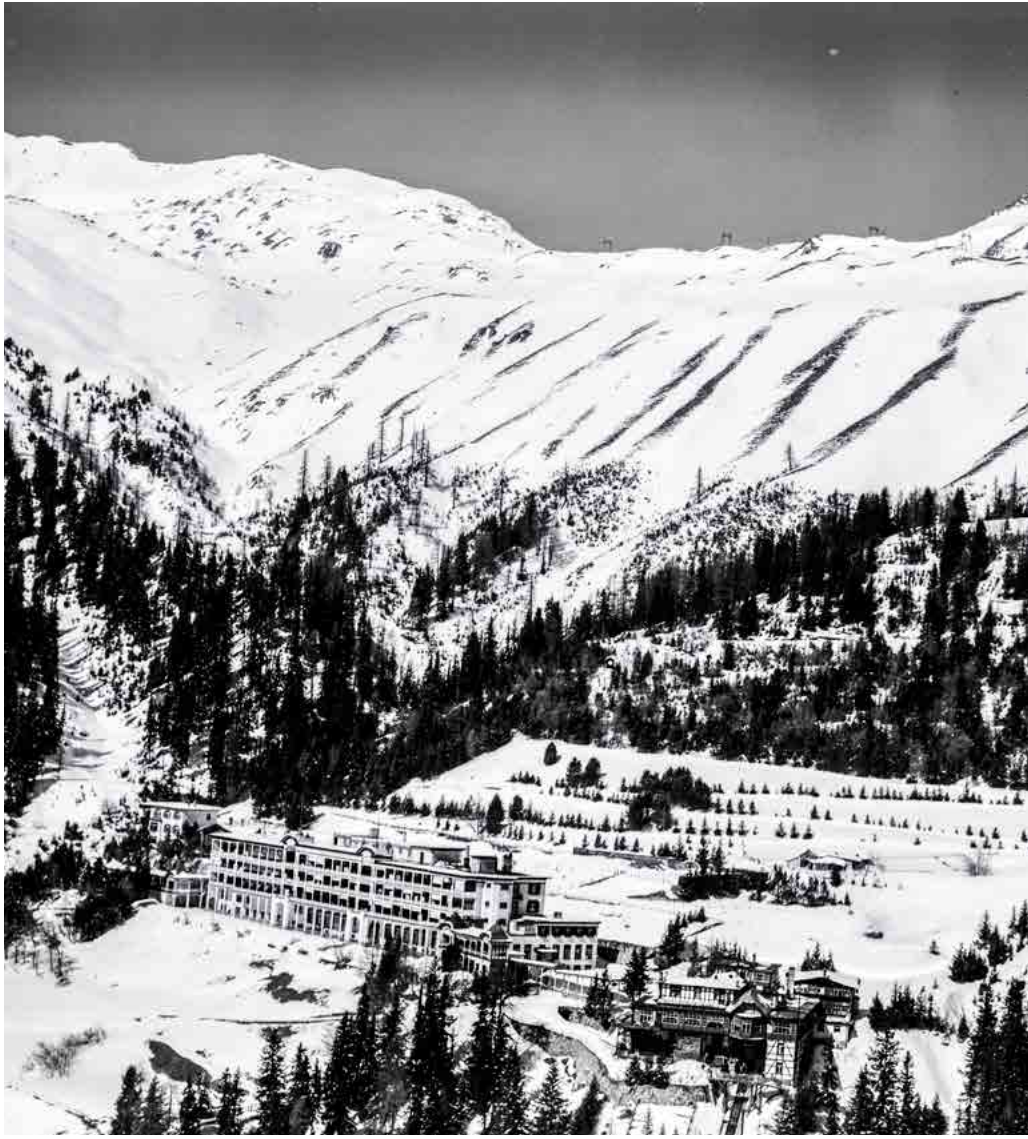

شاتسالب (Schatzalp)، المصحة في دافوس التي أقام فيها مان، وهي المكان الذي تدور فيه أحداث رواية "الجبل السحري"
(مكتبة المعهد الفدرالي للتكنولوجيا في زيورخ / LBS_H1-011619)

وجوهـا المـليء بالمجامـلات المتكلفـة. يسـخر مـان بشـكل لاذع مـن هـؤلاء الأفـراد القلقـين الغارقـين في الملـل، هـؤلاء الحمقـى التافهـين الذيـن يحاولـون لفـت انتبـاه بعضهـم البعـض بنظـرات خاطفـة.

ومثلـما صـوّر أوبلومـوف لغونشـاروف خمـول الطبقـة الأرسـتقراطية الروسـية في القـرن التاسـع عـشر، فـإن عجـز هانـز عـن اتخـاذ أي خطـوة مـع كلوديـا يعكـس عجـز وتـردد البرجوازيـة الأوروبيـة في القـرن العشريـن.

اللاعقلانية

سـاهمت حالـة التشـاؤم والكلبيـة (أو "ضمـور الشـخصية") التـي سـادت البرجوازيـة في فـترة انحطاطهـا، في تعزيـز نمـو التصـوف الدينـي وغـيره مـن الأفـكار اللاعقلانيـة، وأبـرز مثـال عـلى ذلـك النازيـة وأوهامهـا حـول الوثنيـة في شـمال أوروبـا.

وقـد أدى ذلـك إلى مفارقـات غريبـة، إذ تعايـش التصـوف مـع الاكتشـافات العلميـة والتكنولوجيـة المتقدمـة والمعقـدة. فقـد أصبـح العلـم متقدمـا جـدا بحيـث يصعـب عـلى معظـم النـاس فهمـه، ولـه إجراءاتـه الخاصـة التـي تبـدو للكثيريـن أشـبه بالسـحر. كان هـذا المـزج بـين الواقعـي والسريـالي سـمة بـارزة في الأدب "الحـداثي" آنـذاك، والـذي تُعتـبر روايـة "الجبـل السـحري" لمـان مـن كلاسـيكياته.

في إحـدى اللحظـات، يخضـع هانـز لفحص بالأشـعة السـينية، وهـي عمليـة تتضمـن إجـراءات غامضـة، وغرفـة مظلمـة، وومضـات كهربائيـة، يتبعهـا مشـهد غريـب لأحشـائه تُعـرض لـه في الوقـت الحقيقـي. يكتسـب فحـص الأشـعة السـينية دلالـة عاطفيـة عميقـة، تـكاد تكـون روحانيـة، بالنسـبة لهانـز، وتُربـط الصـورة الملتقطـة في لحظـة مـا بجلسـة تحضـير أرواح، مـما يوحـي بـأن هـذه التقنيـة، بالنسـبة لأنـاس عاديـين مثلـه، أشـبه بالسـحر الخفـي. الانطبـاع السـائد هـو أفـراد في حـيرة مـن أمرهـم بسـبب التكنولوجيـا التي يصـيرون في النهايـة معتمديـن عليهـا، كـما يقـول نافتـا، الشـخصية المحوريـة، لهانـز:

«الربابنـة، الطيـارون، في الغالـب سـيئون، غـير موثوقـين، وفـوق كل شيء شـديدو الإيمـان بالخرافـات. كانـوا يحملـون معهـم تمائـم عـلى مـتن طائراتهـم [...] كانـوا يبصقـون ثـلاث مـرات في اتجاهـات مختلفـة، ويرتـدون قفـازات الطيارين المحظوظـين. كيـف يمكـن التوفيـق بـين هـذا العبـث البـدائي وبـين مفهـوم الكـون الـذي يقـوم عليـه عملهـم؟».[5]

وحقيقـة أن زيـارة هانـز، التـي كان مـن المفـترض في البدايـة أن تسـتمر لثلاثـة أسـابيع فقـط، قـد تحولـت إلى إقامـة دامـت سـبع سـنوات، تُجسـد هـذا التناقـض. تـم تمديـد إقامتـه بعـد أن وجـد الطبيـب "بقعـة رطبـة" في رئتيـه، وارتفعـت درجـة حرارتـه إلى منطقـة رماديـة بـين الصحـة والحمـى.

لم يتـم إعـلان تشـخيص هانـز صراحـة. وفي إحـدى المـرات، اسـتخدم الطبيـب معـه مقيـاس حـرارة بـدون علامـات، مـما تـرك للطبيـب حريـة تحديـد درجـة الحـرارة كـما يشـاء. أطبـاء هـذا المستشـفى الخـاص لديهم، بطبيعـة الحـال، مصلحـة قويـة في اسـتخدام براعتهـم العلميـة لإطالـة مـدة إقامـة كل مريـض. يسـاهم هـذا كلـه في ذلـك الجـو السريـالي، حيـث لا يمكـن للمـرء أن يجـزم بمـا هـو صحيـح موضوعيـا، وحيـث حتـى هـؤلاء المـرضى الأثريـاء لا يملكـون فهـما حقيقيـا لوضعهـم أو سـيطرة فعليـة عـلى ظروفهـم.

تتجـلى هـذه المعضلـة وهـذا القلـق البرجـوازي حيـال العلـم والحقيقـة في الجـدالات الحـادة بـين سـيتيمبريني، المؤمـن إيمانـا راسـخا بالعقـل وقـدرة الجمهوريـات

البرجوازيـة عـلى تحريـر البشريـة تدريجيـا، وبـين نافتـا، اليسـوعي المتعصـب المعـارض للعلـم.

يحـذر سـيتيمبريني مـن تجميـل المـرض والمـوت واعتبارهـما نوعـا مـن الكرامـة، ويجـادل لصالـح اسـتخدام العلـم للقضـاء على أكـبر قـدر ممكـن مـن المعانـاة الإنسـانية. بينـما يعمـل نافتـا، في المقابـل، عـلى التقليـل مـن شـأن العلـم باعتبـاره "مجـرد معتقـد آخـر":

«يـا سـيدي الكريـم، لا وجـود للمعرفـة الخالصـة [...] الإيمـان هـو وسـيلة المعرفة، والعقـل ثانـوي. علمكـم الخالـص مجـرد خرافـة. مجـرد معتقـد وتصـور مسـبق للكـون، الفكـرة -وباختصـار: الإرادة- موجـودة دائمـا».[6]

يتسـاءل: «هـل تـم إثبـات وجـود الـذرة، تلـك النكتـة الرياضيـة الجميلـة عـن أصغـر جسـيم في المـادة، الجسـيم غـير القابـل للتجزئـة، بشـكل قاطـع؟».[7] وبهـذا التصريـح كان نافتـا يـردد صـدى علـماء بارزيـن في ذلـك الوقـت، مثـل إرنسـت مـاخ، الذيـن أنكـروا ليـس فقـط وجـود الـذرة، بـل وجـود الحقيقـة الموضوعيـة برمتهـا.

وإذ يسـخر مـن الادعـاءات الغريبـة حـول حجـم الكـون، يقـول لهانـز: «إن بسـاطة الطفـل الـذي يعتقـد أن النجـوم ثقـوب في قبـة السـماء، يسـطع مـن خلالهـا النـور السرمـدي»،[8] لا تقـل جـدارة بالتصديـق عـن الحديـث عـن كـرات اللهـب الهائلـة التـي تبعـد عنـا سـنوات ضوئيـة، والتـي يُتوقـع منـا تصديقهـا لمجـرد أن عالمـا مـا قالهـا لنـا. وبهـذا يبـدو نافتـا تمامـا كأي مفكـر مـا بعـد حـداثي مـن عصرنـا. فكلاهـما، في الواقـع، يعكسـان نزعـة التصـوف والتشـاؤم التـي تسـود الفلسـفة البرجوازيـة في فـترة انحطاطهـا.

عـلى الرغـم مـن سـلبية نافتـا وخطورتـه، يجـد سـيتيمبريني صعوبـة في إقنـاع هانـز بموقـف معـارض لـه، لأن ليبراليتـه المسـتنيرة أصبحـت عقيمـة، مجـردة، وأحاديـة الجانـب. إن إيمانـه القديـم بالدولة القوميـة الجمهورية كمؤسسـة عقلانيـة وضامنـة للحريـة لم يعـد يبـدو مقنعـا عـلى الإطـلاق في عـصر الاسـتعمار وعشـية الحـرب العالميـة الأولى. يعجـز سـيتيمبريني عـن دحـض هجـمات نافتـا عـلى نفـاق الدولـة القوميـة. فالبرجوازية عاجـزة عـن الدفـاع عـن العلـم والعقـل، لأنهـا تبنـي نفسـها عـلى نظـام غـير عقـلاني وظـالم.

أمـا حجـج نافتـا الرجعيـة ضـد الليبراليـة فهـي مقنعـة لأنهـا تحمـل في طياتهـا شـيئا مـن الحقيقـة، وهـو مـا كان عليـه الحـال دائمـا بالنسـبة لأولئـك الرجعيـين الذيـن يهاجمـون العـالم الحديـث. تتميـز شـخصية نافتـا بحبـه للمعانـاة والعقـاب ورفضـه للعقـل والتقـدم، لـذا فـإن انتمائـه لليسـوعية أمـر منطقـي. ومـع ذلـك فإنـه يعتـبر نفسـه "شـيوعيا"، ويطلـق بـين الحـين والآخـر خطابـات حماسـية حـول ضرورة تدمـير العـالم البرجـوازي والتسـبب في الرعـب والمعانـاة الهائلـة للبرجوازيـة.

مـن الواضـح أن تلـك "الشـيوعية" مجـرد شـكل مـن أشـكال تطرفـه الراديـكالي، وميلـه إلى الانتقـام العنيـف. ورغـم أنهـا ليسـت تصويـرا دقيقـا للشـيوعية، فإنهـا تصويـر أصيـل لوجهـة نظـر البرجوازيـة تجـاه الشـيوعية والثـورة باعتبارهـا عنفـا وحسـدا غـير عقلانيـين يهـددان بعرقلـة مسـيرة التقـدم التدريجـي للرأسـمالية.

يقـع مـان هنـا في فـخ مـا يشـبه "نظريـة حـدوة الحصـان"، أي اعتبـاره الشـيوعية والرجعيـة المتطرفـة وجهـين لعملـة واحـدة، بينـما يضـع الليبراليـة عـلى الطـرف النقيـض. ومـع ذلـك فـإن نافتـا يبقـى بمثابـة تجسـيد فعـال للغايـة للنزعـات الظلاميـة التـي يغذيهـا مـأزق الرأسـمالية.

"جزيرة الموتى" (النسخة الثالثة) (1883)، أرنولد بوكلين

ثلـج

يـرى سـيتيمبريني نفسـه مواطنـا برجوازيا كلاسـيكيا، منـاصرا للنضـال مـن أجـل التنويـر، لكنـه في الواقـع لا يفعـل شـيئا. لم يكتـب سـوى مقـال واحـد طـوال حياتـه. وكل مـا يفعلـه هـو إطـلاق العنـان لأفـكار جوفـاء أثنـاء جدالاتـه مـع نافتـا حـول روح هانـز البرجوازيـة.

وهـذا الـصراع، الـذي يرمـز إلى مفـترق الطـرق الـذي وقـف عليـه (ومـا يـزال) المجتمـع الرأسـمالي، هـو صراع يفـوق قـدرة هانـز العـادي. فهـو يفضـل قضـاء سـنواته في دافـوس الهادئـة. إن تـرده، وازديـاد انكفائـه عـلى ذاتـه، وتصويـره الرومانـسي للمـوت، كلهـا سـمات نموذجيـة للبرجوازيـة آنـذاك والآن، وعجزهـا عـن حـل مشـاكل نظامهـا. وكـما يلخـص هانـز، بأسـلوب مثـير للشـفقة، الارتبـاك الأيديولوجـي لطبقتـه: "يـا لهـا مـن فـوضى!".[9]

وبسـبب عـدم قدرتـه عـلى التعبـير عـن نفسـه اجتماعيـا وعاطفيـا، بـدأ في البحـث عن المغامـرة في عزلـة الجبـال المحيطـة بالمصحـة. تُشـكل ريـاح الجبـال العاتيـة ملاذا لـه مـن رفاهيـة المصحـة المقيـدة.

وتُعـبر رحـلات هانـز المحفوفـة بالمخاطـر، والتـي تـزداد خطـورة، عـن فكـرة النزعـة التدميريـة الجامحـة للبرجوازيـة الإمبرياليـة، ورغبتهـا في المـوت. فبسـبب عجزهـا عـن قيـادة المجتمـع نحـو التقـدم، صـارت تجـر البشريـة إلى الهمجيـة.

يمكـن اعتبـار الفصـل الـذي عنوانـه "الثلـج"، والـذي هـو الفصـل الأكـثر محوريـة في الكتـاب، فصـلا مرعبـا حقـا. فهـو يجسـد ببراعـة القـوة الهائلـة للقـوى الطبيعيـة، وقدرتهـا عـلى سـحق البـشر الضعفـاء، والرهبة التـي يثيرهـا مشـهد الجبـال الشاسـعة الجرداء. ويذكرنـا سـلوك هانـز المحفـوف بالمخاطـر في تلـك الجبـال بالرغبـة الغريبـة وغـير المنطقيـة في القفـز مـن الحـواف العاليـة.

وبينـما يكـون هانـز، في حـدود المصحـة المقيـدة، خجـولا ومدانـا بالإفـراط في التفكـير، فإنـه في عزلـة الجبـال يكـون شـجاعا، بـل ومتهـورا. وكـما كان الحـال في المصحـة، كان منجذبـا إلى المـوت.

لكـن الواقـع القـاسي والوحـشي الـذي ينتظـر هانـز في الجبـال يرعبـه فجـأة. فبعـد أن فقـد وعيـه ورأى أحلامـا مزعجـة، اسـتعاد هانـز وعيـه بنظـرة جديـدة، وخلـص إلى القـول:

«... **بسـبب الإحسـان والمحبـة، لا ينبغـي للإنسـان أبـدا أن يسـمح للمـوت بالسـيطرة عـلى أفـكاره**».[10]

تعكـس تلـك الكلـمات بوضـوح رعـب مـان و"صحوتـه" خـلال الحـرب العالميـة الأولى، وحقيقـة أن تلـك الكلـمات هـي الوحيـدة المكتوبـة بخـط مائـل في الكتـاب بأكملـه، تشـير بقـوة إلى أن مـان كان يعـبر مـن خلالهـا عـن معتقداتـه الخاصـة: رفـض كل مـن الثـورة والرجعيـة، اللتـين كلاهـما، مـن وجهـة نظـر مـان، تتسـببان في "سـيطرة المـوت عـلى أفـكار المـرء".

تجـدر الإشـارة إلى أن مـان أنهـى كتابـة هـذا الفصـل في يونيـو 1923، عندمـا كانـت ألمانيـا في خضـم أزمـة ثوريـة. بلغـت تلـك الأزمـة ذروتهـا في انتفاضـة شـيوعية فاشـلة في أكتوبـر مـن العـام نفسـه، والتـي أعقبهـا انقـلاب بـير هـول الـذي قـام بـه هتلـر في نوفمـبر. مـن الواضـح أن قلـق البرجوازيـة الألمانيـة، العالقـة بـين الفاشـيين مـن جهـة، وبـين احتماليـة الثـورة الاشـتراكية مـن جهـة أخـرى، ينعكـس بدقـة في أفـكار مـان.

وقـد تبـين أن أمـل مـان في أن تـؤدي جمهوريـة فايمـار، التـي كانـت قـد تشـكلت حديثـا، بانتصـار "الرحمـة والمحبـة" كان وهـما. فقـد أكمـل انتصـار النازيين سـنة 1933 انحـدار البرجوازيـة الألمانيـة إلى اللاعقلانيـة والهمجيـة والمـوت. ومـع ذلـك فـإن بحـث مـان الصـادق والعميـق عـن سـبيل للمـضي قدمـا بالثقافـة البرجوازيـة الأوروبيـة لم يسـفر إلا عـن تسـليط الضـوء عـلى غيـاب ذلـك السـبيل.

الانحطاط

هـذه الصراحـة هـي مـا يجعـل روايـة "الجبـل السـحري" تحفـة فنيـة. فعـلى الرغـم مـن الطبيعـة الرمزيـة للشـخصيات، فإنهـا لا تبـدو "مجـرد ظـلال وأمثـال متحركـة"،[11] مـا كان يخـشى مـان نفسـه. فالقـارئ يـدرك رمزيتهـا وفي الوقـت نفسـه ينجـذب إلى عالمهـا العاطفـي. وكـما قـال إنجلـز عـن روايـة مينـا كاوتسـكي: «كل شـخصية منهـا تجسـد نمطـا، وفي الوقـت نفسـه فـردا مسـتقلا، "ديـزر" [هـذا]، كـما كان العجـوز هيجـل يقـول، وهكـذا ينبغـي أن يكـون».[12]

يُظهـر مـان طـوال الروايـة براعتـه التامـة في الكتابـة، جامعـا بسلاسـة بـين الوصـف الدقيـق والواقعـي وبـين الرمزيـة القويـة والصـور السـاحرة. لكـن متعـة قـراءة هـذا الكتـاب تكمـن أساسـا في ثـراء أفـكاره. لا شـك في أن هـذه روايـة فلسـفية عميقـة. وهـذا تحديـدا مـا يجعلهـا عظيمـة. كتابـة مـان غنيـة جـدا، سـاخرة، فكاهيـة، وعميقـة لدرجـة تجعـل القـارئ لا يفقـد اهتمامـه بسـبب طبيعتهـا الفلسـفية والرمزيـة القويـة.

وحتـى يومنـا هـذا، وربمـا أكـثر مـن أي وقـت مـضى، مـا تـزال البرجوازيـة منقسـمة بـين الليبراليـة -التـي يُفـترض أنهـا تقدميـة- مـن جهـة، وبـين اللاعقلانيـة وإنـكار التقـدم مـن جهـة أخـرى. مـا تـزال تسـير نائمـة نحـو الكارثـة، عاجـزة أمـام أزماتهـا.

وبالتـالي فـإن روايـة الجبـل السـحري تكشـف عـن حالـة التفـكك والانحطـاط التـي تعيشـها الطبقـة البرجوازيـة، وهـي حالـة ليسـت مجـرد لحظـة عابـرة، بـل ظلـت تتعفـن عـلى مـدى أكـثر مـن قـرن. إنهـا نافـذة عـلى عقليـة طبقـة مفلسـة ورجعيـة يجـب الإطاحـة بهـا مـن أجـل تحقيـق التقـدم مـن جديـد، ولـكي يوظـف العلـم توظيفـا عقلانيـا في سـبيل تحـرر البشريـة.

المراجع متاحة على الانترنيت عبر:
marxist.com/idom-52-references

أو يمكن مسح رمز الاستجابة السريعة (QR code)

Wellred Books

wellred-books.com